ملك الهند

جبّور الدويهي



رواية

دار الساقي

جبّور الدويهي

مَلِكُ الهند



1

عاد زكريا بن إبراهيم مبارك في مطلع الصيف مع موسم الكرز وجبنة الماعز. عاد إلى مسقط رأسه تلّ صفرا الجالسة في منبسط على علوّ 700 متر، تصحّ فيها ثمار الساحل والجرد معاً، ويقصدها في سنوات الهدوء سيّاح عرب من دول الخليج. تضمّ مدرسة ثانويّة رسميّة تحمل اسم شاعر باللغة العامّية من أبنائها، وأخرى خاصّة بإدارة الأخت كونستانس من راهبات القلبين الأقدسين تستقبل الإناث والذكور، ومخفراً لقوى الأمن الداخليّ يداوم فيه رقيب وثلاثة عناصر، ومستشفى حكوميّاً يشكو مديره على الدوام من نقص في المعدّات الطبّية، وفيها كذلك آثار معبد رومانيّ، كما تنتخب مجلساً بلديّاً بالتزكية تتمثّل فيه جميع العائلات مناصفة بين المسيحيّين والدروز مع احترام التناوب في رئاسته بين الفريقين.

أحبّ أهلها السفر لأنّهم على مرمى حجر من الطريق "الدوليّ" الذي يوصل الداخل بالبحر الأبيض المتوسّط، وشاهدوا بالعين المجرّدة طوال القرن العشرين حركة الخارجين برّاً من سوريا أو العراق إلى بيروت

والمتدفّقين من هناك في الآونة الأخيرة بسبب خراب بلدانهم إلى كلّ مرافئ الدنيا ومطاراتها.

أكمل زكريا في ترحاله تقليداً بدأ قبل قرون، فأوّل من ركب البحر من أهل البلدة فعلها خلسة، في ثياب امرأة مسلمة، حاملاً عباءة حرير ورسالة من الأمير فخر الدين الكبير إلى قزما الثاني، دوق فلورنسا، يطالبه فيها بالمزيد من البنادق والذهب لمحاربة والي الشام العثمانيّ. بقي الرسول هناك حيث درس اللاتينيّة، وشارك في ترجمة **العهد القديم**. أُغرم بسيّدة في بلاط الدوق أفقدته صوابه، ودخل السجن بسب ديون لم يسدّدها، ثمّ عاد إلى خلوة في وادي النسّاك شمال لبنان ليكتب تاريخ البشريّة في خمسة أجزاء. الثاني هُجّر قسراً في القرن التاسع عشر بمكيدة حاكها القنصل الفرنسيّ مع تجّار الحرير من مدينة ليون. نُفي إلى الجزائر حيث كتب رسائل كان فيها أوّل مَن دعا إلى اتّحاد عربيّ لم يرسم ملامحه جيّداً، وتخيّل مشروعاً لاستخراج المعادن من جبل التراب الأحمر في جوار بلدته، وربّما يكون أوّل مسيحيّ شتم فرنسا وعارض سياستها في هذه الأنحاء. كرّت السبحة مع فصول الشدّة والعوز وبزوغ القرن العشرين، فذهب شباب البلدة وبعض نسائها في كلّ اتجاه وشعارهم أينما استقرّوا أنّ الله حلّل البيع والشراء، فكانوا من أرباب

التجارة وتقرّبوا من أولياء الأمر وأصحاب النفوذ. قلّة منهم عادوا إلى بلدتهم، وأشهر العائدين رجل من الدروز وجد أنّ اسم ذوقان لا يخدمه في هجرته فاستبدله باسم خورخي، وتعلّم فنّ الدواء في الأرجنتين فافتتح صيدليّة في تلّ صفرا يعدّ فيها زيت الخروع ويطحن حبوباً ويعدّ شراباً منشّطاً جنسيّاً يقول إنّه أخذه عن هنود أميركا الحمر. تكاثر عليه الطلب فصار يجبّر الكسور، وولّد سيّدة على وجه العجلة لكنّه أصيب بنوبة ذعر عند خروج الطفل فتوقّف عن التدخّل في شؤون لا تعنيه. كان يشكّك في فوائد البنسلين، ويتكلّم وحده بصوت عالٍ وهو يشوّر بذراعيه المديدّتين فلبسته عبارة "لطشه البحر" حتّى مماته، وصارت تُطلق من بَعده على مَن جلبوا معهم من المهجر عادات غريبة. كما رجعت امرأة نجت من غرق باخرة التيتانيك. أمضت سنوات طويلة جالسة وحيدة على شرفة منزلها تدخّن التبغ العربيّ محاطة بمجموعة كبيرة من الهررة، ويسمعها الجيران في بعض الأمسيات تنادي في نومها على زوجها الذي منعه الحرّاس من الصّعود معها في مركب النجاة. تقول إنّها تردّ عليه، وتسمع صوته يصرخ باسمها من هناك حيث بقي في قعر المحيط.

زكريا عاد أيضاً. وصل من دون إنذار عند هبوط المساء. وقف في باب بيت أهله كطيف هائم ضلّ

طريقه، فأطلقت شقيقته مرتا زغردة لعلعت في فضاء البلدة، وأيقظت عمّتها راحيل المريضة النائمة جلوساً في مقعد الصالون، وتدحرجت إلى قعر وادي الحجل. ما إن تداركت المفاجأة، حتّى انهالت بقبضتيها على صدر شقيقها ضرباً، ثمّ عانقته وشمّته وهي تصرخ به: لو التقيتكَ في الطريق، ما عرفتكَ؛ انظر إلى نفسك كم أنت هزيل! تعال! سوف أعتني بك. عمّته راحيل جالسة حيث تركها قبل رحيله. قبّلها في رأسها وهي تضحك، فأخبرته مرتا أنّها تقضي الليل كلّه هنا في أيّام الصّيف وترفض أن ترتدي ثياباً جديدة.

كانت مرتا مضطربة تبكي فرحة لمجيئه، وتلومه لأنّه عاد، ثمّ تضمّه من جديد وتحاول مساعدته في ترتيب أغراضه. يمنعها ويحمل حقائبه بنفسه إلى غرفة والديه. يقترب من النافذة ويحاول زحزحة قضبان الحديد للتأكّد من صلابتها. يفتح الحقيبة الكبيرة. يُخرج من قعرها إسطوانة معدنيّة يتفحّصها من مختلف جهاتها من دون أن يفضّها ليتأكّد من أنها اجتازت الرحلة الطويلة سالمة. يحمل بعناية أيضاً قارورة من الزجاج الداكن مع سدّة محكمة من الفلّين مثل قناني النبيذ كُتب عليها اسم "ماري"، ويضعها على الطاولة إلى جانب السرير عند رأس النائم. يقفل الباب بالمفتاح ويعود ليمضي السهرة مع مرتا.

يبتسم متكلّفاً وهي تأتيه بالأكل ولا يأكل. تحكي لا تتوقّف. يرنّ هاتفه؛ تسكت كي تدعه يجيب لكنّه ينظر إلى الشاشة ويتجاهل المكالمة. تسأله أيّ البلدان أعجبته ويريدها أن تزورها، وقبل أن يردّ تخبره أنها تحتفظ برسائله القليلة وكانت تعيد قراءتها لأمّها. وفجأة تريد أن تعرف هل تزوّج أو له أولاد، فلا يجيب. يغصّ ويشيح بوجهه نحو عمّته راحيل التي استيقظت من جديد في هذه الأثناء، ورفعت يديها نحو السّماء، وقالت كلاماً على عادتها غير مفهوم ترجمته مرتا التي صارت تفك رموزها بفعل العشرة الطويلة: "تقول إنّك ما دمت قد عدت إلى البيت، صار بإمكانها أن تموت مرتاحة!".

تردّ إليه ساعة يده التي سرقتها منه قبل رحيله، وتخبره عن نازحين عراقيّين مهجّرين من بلادهم توقّفوا في البلدة ويسكنون فيها الآن، مهذّبين يتقنون بعض المهن ولا يقبلون الصّدقة. تحكي وتحكي كأنّها إذا سكتت سيضعها صمتها أمام مشاعر عارمة، مشاعر متناقضة أيقظتها عودة شقيقها ولا يمكنها التغلّب عليها. طوّق كتفيها بذراعيه وشدّها إليه وهو يطمئنها بعبارات قليلة أنّ الأمور ستجري على ما يرام، فهدأت. شربا النعناع عند منتصف الليل، فنعست ودخل زكريا إلى غرفة والديه ليرتمي فوق سريرهما النحاسيّ.

انقضت الليلة الأولى عليه، ما إن تأتيه الإغفاءة، حتّى يوقظه مذعوراً إحساس بالاختناق، فيرتجف وتجحظ عيناه في العتمة، حتّى تسلّل ضوء الفجر من شقوق النافذة، فهدّه التعب وذاق ساعة واحدة من النوم ليس أكثر.

أمضيا فصل الصّيف معاً. تغنّي مواويل غرام سعت إليه ولم تذقه، وتسأله متى سيرحل من جديد كأنها تشجّعه على ذلك، فيمطّ شفته السفلى ولا يجيب. تقول لجاراتها اللواتي توافدن لتهنئتها بعودته إنّ السفر انقلب على شقيقها سكوتاً. تحضّر قهوة الصباح ثقيلة كما تحبّها، فيحتسيها ساخنة خلف النافذة، وتدمع عيناه عندما يصغي إلى أطفال الحارة يتقاذفون الكرة ويتصايحون تحت شجرة الجوز الكبيرة. تزجرهم عمّته راحيل بصرخة حادّة فلا يأبهون. يحفظ جواز سفره وسائر بطاقاته وإجازة السوق في درج خزانة الثياب. لن يحتاجها في البلدة. لن يسأله أحد هنا عن هويّته. يقفل غرفته ويدفع بابها بقوّة كي يمتحن متانته. تحاول مرتا إقناعه ألّا يتجوّل كثيراً وألّا يتأخر ليلاً: "لا أعرف السبب لكنني خائفة عليك".

يمشي صوب ساحة البلدة. تمتدّ أمامه الطريق وسط بيوت الحجر المقصّب وأشجار الحور. يسير على مهل. يدوس على ذاكرته في صباح يوم سماؤه صافية

وشمسه لامعة. يتهرّب من فضول بائع الجرائد، يتصفّح "**الدايلي ستار**" وقوفاً ثمّ يطويها ويردّ بها الشمس عن رأسه في الدروب الضيّقة. يعرف أهل بلدته من وجوههم، من رؤوسهم ونبرة أصواتهم ولو وُلدوا في غيابه. يرمي السلام على اللحّام البدين والثرثار الذي ورث مهنة والده ومفرداته. يطيل الوقوف في باب صاحبة الفرن التي لا تزال تصنع القطايف بالسكّر والخبز العربيّ. تسأله ماذا يريد، فيبتسم في وجهها ابتسامة محبّة: "سلامتكِ".

يرفع يده لمَن تعرّفوا عليه بعد غيابه الطويل وسألوه عن صحّته، ولشبّان لم يعرفوا مَن يكون هذا النحيل صاحب البذلة من الكتّان المتهدّل وقبعة القشّ البيضاء الذي يتصرّف كالسيّاح وليس سائحاً.

رافق وكيل الوقف إلى المقبرة العموميّة. لم يزر تربة عائلته مرّة من قبل. هنا لا يزور الرجال المقابر. تداولا في كلفة ترميم الملاكَين من الرخام الواقفين على سطحها وتنظيف حجرها وتغيير بابها الحديد الذي ضربه الصدأ. سأل زكريا عن أسماء العائلات المحيطة بها؛ جيرة الموتى غير جيرة الأحياء. راودته أفكار عدة طوال سفره منها أن يلقي نفسه في الماء من فوق أحد الجسور العالية فينهي حياته وسط العالم هناك، في باريس أو نيويورك، وليس هنا عند أطرافه النائية.

يرتدي البذلة الرماديّة التي خاطها لدى "ستارك وأولاده" عندما انتفخت محفظة نقوده، ولبسها مرّة واحدة فقط يوم دعته سيّدة من صديقاته اللعوبات إلى حفل راقص في أحد فنادق العاصمة الفرنسيّة، ويعلّق على صدره ميداليّة النسر الأحمر البروسيّة التي اشتراها بالقليل من سوق الأحد. يقف على حاجز الجسر ويلقي قصيدة الفرزدق في مدح زين العابدين بن الحسين قبل أن يسلّم نفسه للفراغ والماء. لكن رجحت لديه في النهاية فكرة أن يرقد هنا بين أقاربه وأهل بلدته حيث يطلّ على بحر صغير لكن عريق. ينام في جوار الذين قُتلوا ودُفنوا إلى جانب من قُتلوا ثأراً لهم، إلى جانب المرأة التي يُقال أنها كانت تتعرّى تماماً وترقص مرخيّة الشّعر في ليالي القمر المكتمل وسط أنقاض المعبد الرومانيّ، فيخاف منها الرجال ويتحاشون المرور في الجوار. سيرقد قرب أمّه أميلي التي لم تذق حلاوة الدنيا يوماً، وكانت أمومتها سبباً لتعاستها الطويلة، وإلى جانب عمّه يونس وأولاده الذين رأوا أنهم ظُلموا في قسمة ميراث العائلة.

عند الحادية ظهراً يذهب ليأكل وحده في "استراحة الدلب". يعفي شقيقته من تحضير الغداء. طبخ في غربته جميع المآكل التي حمل روائحها معه. عرّف الفرنسيّين على البابا غنّوج والأميركيّين على المحاشي،

لكنّه فقدَ الرغبة في الاحتفاء بالأكل وإطعام الآخرين. صار يطلب عرقاً صافياً غير ممزوج بالماء، وزيتوناً أخضر مع الشومر، وجرجيراً مغمّساً بالزيت وحامض الليمون، وهندباء، ورغيفاً رقيقاً موسّعاً، يرتّبها كما تخيّلها وهم يقدّمون إليه في الطائرات أو الفنادق الرخيصة على الطريق بين الولايات الأميركيّة مآكل ملوّنة لا طعم لها. يتأمّل المائدة البسيطة، يتأمّل الجبل المائل إلى الزرقة. يغمض عينيه طويلاً ثم يمدّ ذراعيه نحو السماء قبل أن يرفع كأسه استجابة لطلب صاحب المطعم الذي يشارك زبائنه الشراب من الطاولة التي يجلس إليها وحيداً.

يرجع إلى البيت، يتمدّد فوق الكنبة في قاعة الجلوس بالقرب من عمّته راحيل واضعاً قبّعته على وجهه اتّقاء للضّوء، بينما تقرأ له مرتا من دفترها الخاصّ لائحة بصانعي الأحذية والخيّاطين المنقرضين في البلدة، وأسماء عيون الماء، وصفحة تقول فيها لماذا لم ترغب في الزواج. تحكي فيها عمّن تسمّيه الخائن الذي سألها من دون حياء عن ورثة أبيها فأفهمته أنّه لم يترك لهما سوى هذا البيت والكرم وهي تنازلت عنهما لأخيها. لم يعجبه الأمر فأدار ظهره ومشى. فليذهب إلى جهنّم! ترفض الإفصاح عن اسمه، وتسترسل في الكلام عن محامٍ يعرفه زكريا أعجبها وأعجبته لكنّهما لم يعرفا

كيف يدخل كلّ منهما إلى قلب الآخر فبقيا عند الباب حتى خطفته فتاة لا تستأذن في إظهار رغباتها.

تستأنف القراءة من دفترها، بينما يغمض زكريا عينيه مدّعياً القيلولة ولا ينام ليفتحهما ما إن تتوقّف عن القراءة، فيخرج من البيت عائداً إلى ساحة البلدة من جديد. يعرّج على المقهى حيث بدأ الزبائن يعتادون وجهه الحزين ولطافته. "هاي زاك"، ينادونه بين التحبّب والتهكّم وهم يتوزّعون حول طاولة لعب الورق الخضراء المستديرة. يتابعهم لدقائق، يبتسم مسايرة لنوادرهم، ثمّ يبتعد ليجالس رجلاً وحيداً غريباً تفضحه لهجته وهو يتكلّم مع خادم المقهى. زكريا أيضاً صارت لهجته قديمة. أخذها معه لعقود واحتفظ بها كما هي. يعرّف عن نفسه ويستأذن بالجلوس.

"من أين أنت؟".

يحرّك الرجل يده قليلاً صوب الشّرق كأنّه سئم الإجابة عن هذا السؤال. يطول الصّمت بينهما، فيهمّ زكريا بالنّهوض والابتعاد كي لا يزعج الغريب لكن الأخير يحكي فجأة. يروي مرّة جديدة الحكاية التي يهتمّ به الناس من أجلها: "سقطت الموصل واستيقظنا بعد يومين على أصوات وضجيج، فوجدنا رجلاً يلبس عقالاً وكوفيّة يقف على سطح مبنى البلديّة. أطلق رشقاً من رشّاشه ليلفت انتباه الأهالي قبل أن يحثّهم على

مغادرة بيوتهم فوراً والرحيل شمالاً باتجاه القرى الكرديّة".

العراقيّ لا يتوقف عن حكّ يديه بيديه، فتحمرّ جلدته كلما تزاحمت الذكريات القريبة. يسكت قليلاً، ثمّ يُكمل:

"جُنّت أمّي، صارت تحكي بصوت عالٍ كلاماً غير مفهوم كأنّ لغة غريبة استيقظت فيها فجأة، لغة أصواتها أليفة لكنّنا لم نفهم منها كلمة واحدة. ثمّ بدأت تقبّل الجدران والنوافذ والفرش، ورفضت أن تحمل أيّ غرض معها. ابن شقيقي راح يصوّر كلّ شيء بهاتفه: الغرف والأسرّة والأشجار والطريق، كلّ زاوية، حتّى أنّه صوّر الغيوم فوق بيوتنا. حُشرنا في السيّارات، واضطرّ الشبان إلى الجلوس على سطوح المركبات فخرجنا في موكب واحد أخير ليس معنا سوى بعض الثياب وأموالنا. وصلوا بعد ساعات، أحرقوا بلدتنا وانفرط عقدنا، أنا وأشقّائي وعائلاتنا. وصلنا إلى عندكم لكنّنا لن نطيل إقامتنا بينكم، ننتظر فقط التأشيرات إلى كندا، موعودون بها بعد ثلاثة أشهر".

رنّ هاتف زكريا. نظر إلى الشاشة ورفض المكالمة.

"ولماذا لا تمكثون عندنا؟".

لن نُلدغ من حجر مرّتين، نريد لأولادنا العيش في بلاد جالسة، صحيح أنّها باردة لكنّها جالسة.

كاد زكريا يروي للعراقيّ سنوات هجرته الطويلة إلى بلدان "جالسة" وقراره العودة نهائيّاً إلى حيث وُلد لكنّه لم يجد فائدة في الكلام. تمنى للرجل التوفيق ومشى.

قصد كرم المحموديّة بعد الظهر في مسيرة نصف ساعة على الأقدام. يأتي لينظر إلى الأفق البعيد وإلى صفحات حياته المتوارية خلف البحر. وفي يوم من أيّام الخريف الرائعة، بدأت فيه أوراق الشجر تتلوّن بين الصفرة والاحمرار، رأته جماعة من المتنزّهين من بعيد جالساً مرتدياً بذلة الكتّان كمَن كان يستريح وغفا. اقتربوا منه فرأوا بقعة الدم الكبيرة تلوّث بياض سترته. طلقة رصاص واحدة لجهة القلب قتلته!

2

عثرت على القتيل جماعة من "نادي الدروب القديمة" الذي تأسّس كما تنصّ شرعته "من أجل تغذية روح المشي في الطبيعة واكتشاف الثمر والحجر والنسر والثعلب والعثور وراء كلّ صخرة على حكاية وفوق كل تلّة على مأثرة". وجد هؤلاء المشّاؤون زكريا مبارك على منحدر التلّة في الخامسة بعد ظهر الأحد. كانوا حائرين أيّ اتجاه يسلكون بعد فشل "نظام التموضع العالميّ" في إرشادهم إلى طريق البغال التي توصل إلى المقلب الآخر من الوادي، عندما شاهد أحدهم زكريا من بعيد جالساً ممدّداً في فيء شجرة تفّاح الجبل التي تعطي ثمراً صغيراً شاحباً ينقره الطير ما إن ينضج ويعفّ عنه العابرون. وضع إصبعيه في فمه، وأطلق صفّارة لإبلاغ رفاقه، فنادوا مرّتين وثلاثاً على الرجل الذي اعتقدوا أنّه ينعم بقيلولة عساه يدلّهم على ضالّتهم فلم يلتفت. ساروا نحوه ليلقوه صريعاً، فصرخت الفتاتان الوحيدتان في عداد الفريق صوتاً واحداً من الخوف. عيناه مفتوحتان تنظران إلى السماء الزرقاء تطرّزها غيمة خجولة وربّما لا تصدّقان ما حدث، وتقاسيم وجهه تعبّر عن ألم الأرجح أنّه شعر ببدايته ولن يذوق تمامه فقضى

نحبه وسط المعاناة. لم تسقط قبعة القشّ أرضاً مع أنّ رأسه ارتدّ إلى الوراء، ففغر فوه قليلاً وسال لعابه قبل أن يستسلم إلى الأبد. كان جالساً على دمه الذي سال ولطّخ ثوبه، فرسم عليه بقعاً مبعثرة لا يزال لونها قانياً يشير إلى أنّه لم يَمضِ وقت طويل على الوفاة، وقد غطّى بذراعه اليسرى الفجوة التي مزّقت صدره في حركة دفاعيّة متأخّرة أو محاولة ضغط على موضع الألم. تقدّم شابّ من المجموعة يتدرّج في كلّية الطب في الجامعة فبحث عن الشريان السباتيّ في عنق زكريا، لم يأخذ نبضه من يده بل اقترب من فمه ليرصد تنفّسه قبل أن يعلنه لرفاقه ميّتاً بحركة أفقيّة من يده، فأطرق الجميع صامتين. ثمّ طلب اثنان منهم أرقام النجدة والطوارئ، وانتظروا نصف ساعة إلى جوار زكريا، فأصيبت واحدة من الفتاتين بنوبة من الضّحك الهستيريّ كانت تقطعه بشهقات بكاء.

وصلت سيّارة "نيسان باترول" البيضاء من مخفر الدرك في البلدة وعلى متنها الرقيب والسّائق، وحرّكت وراءها زوبعة من الغبار عند تجاوزها الإسفلت ودخولها الطريق الترابيّ المؤدّي إلى مطلّ الصنوبر. وكان هاتف المخفر قد رنّ في الرابعة وخمسين دقيقة للإبلاغ عن وجود قتيل هناك ورفض المتّصل الإفصاح عن هويّته. يمتنع أحياناً مَن لهم تجربة في التعاطي مع القوى

الأمنيّة عن كشف أسمائهم في حالات مماثلة كي لا يُصار إلى حجزهم واستجوابهم وإضاعة وقتهم كشهود أمام القاضي إذا وصلت القضيّة إلى المحكمة. لم يستجب محرّك سيّارة الدفع الرباعيّ التي عفا عليها الزمن، وهي آليّة المخفر الوحيدة، إلّا بعد ربع ساعة من المحاولات والشتائم من الرقيب الذي كان يطلب من الله في كلّ مناسبة تسريع انقضاء الأشهر التي تفصله عن موعد تقاعده.

فور ترجّله ورائحة الويسكي الرخيص تفوح منه، شدّ قسمات وجهه تأكيداً لما يُقال له أنّ طلّته مخيفة، وسأل المتحلّقين جوار الجثّة بلهجة الاتّهام هل اتّصلوا بمخفر الدرك للإبلاغ. قالوا إنّهم اتّصلوا برقم 112 وبـ"الصليب الأحمر"، فسُمع رنين هاتف محمول. تفقّد أصحاب الهواتف ممَن لديهم رنّة مماثلة آلاتهم. لا أحد. تبادلوا النظرات وأدركوا أنّه هاتف القتيل. لم يتقدّم متطوّع من الواقفين للبحث عن الهاتف وبقي الجميع، أعضاءُ نادي المشاة العشرة ورجلا الأمن، يصغون بترقّب إلى الرنّات المتقطّعة حتّى احتضارها.

لم يتعرّف الرقيب على القتيل ولا تعرّف عليه مرافقه مع أنّهما يخدمان في البلدة منذ سنتين. طلب من المشّائين الانصراف، وأرفق طلبه بحركة من يده تشير إلى ضرورة الإسراع في الانسحاب من الموقع. لم يجد

حاجة إلى سوقهم إلى المخفر وأخذ إفاداتهم وتحمّل وزرهم بعد أن تأكّد له أنّهم غرباء عن البلدة منصرفون إلى هوايتهم. ابتعدوا واجمين ساعين إلى الوصول إلى محطّتهم التالية قبل هبوط الليل. بقي تلميذ كلّية الطبّ يسير متأخّراً عن رفاقه. ينظر إلى الخلف، يتوقّف متردّداً كأنّه يرغب في الرجوع إلى محيط شجرة تفّاح الجبل. يودّ إبلاغ رجلَي الأمن أنّه رأى مسدّساً مرميّاً بين الأعشاب على بعد أمتار قليلة من الجثّة. وحده رآه لأنّه الوحيد الذي اقترب من القتيل. غلوك، حديث العهد، رقم 17.

افترض أنّ هذا التصريح سيؤدّي إلى تأخير المجموعة لتسجيل شهاداتها، ولمّا انتبه رفاقه إلى تخلّفه عنهم ونادوه بإلحاح، فضّل الالتحاق بركب المشاة الذين سرعان ما تجاوزوا المنحدر واختفوا عن الأنظار. سيفكّر الشاب مراراً في فداحة ما اقترفه لكنّه لن يجرؤ على العودة عن تستّره لأنّه سيثير الشكوك حوله شخصيّاً، فغالبَ نفسه محاولاً النسيان. وما شجّعه على طيّ الصّفحة أنه لم يخبر أحداً، حتّى من رفاق النادي، عن وجود المسدس.

هاتَفَ الرقيب بعد ذلك عنصر المناوبة في المخفر، وطلب منه إحضار الطبيب الشرعيّ على وجه السرعة قبل حلول الظلام، وإرسال سيّارة إسعاف، وإبلاغ

المدّعي العامّ في جبل لبنان بوقوع جريمة قتل في خراج بلدة تلّ صفرا الساعة الخامسة، ثمّ تراجع مصحّحاً من دون الاستناد إلى أيّ معطيات: الرابعة... والربع. سأل الدركيّ المناوب في المخفر عن هويّة القتيل كي يكمل بلاغه، فاستمهله الرقيب للتفتيش في جيوبه. لم يكن سهلاً على السائق الذي ضاق ذرعاً بأوامر رئيسه والمشمئزّ من منظر القتيل الغارق في الدم الوصول إلى سروال الميّت وسترته التي أخرج من جيبها الداخليّة بصعوبة وبأطراف أصابعه محفظة جلديّة سوداء. لم يجد في باقي الجيوب سوى مفتاح غرفة نومه والهاتف الجوّال. سحب الرقيب من المحفظة دولارات أميركيّة وعملة لبنانية وصوراً ورسائل بخطّ اليد، منها بخطّ طفل صغير، وورقة عليها أختام، وجميعها مكتوبة بالإنكليزية أو الفرنسية. لم يجد بينها بطاقة هويّة، والمساء يهبط والرقيب ما عاد يميّز الحروف وهو لا يفلح في فهم اللغات الأجنبيّة، فراح يتلفّظ من جديد بعبارات تنمّ عن تبرّمه وسوء أطباعه. أعاد العملات والأوراق إلى المحفظة وحاول استئناف المحادثة على الهاتف، فوجد أنّ عنصر المناوبة يئس من انتظاره فأغلق الخطّ. طلبه من جديد وهو يشتم في كلّ اتجاه ليفيد أنّهم وجدوا قتيلاً مجهول

الهويّة يرتدي بذلة بيضاء ويضع على رأسه قبّعة... نقطة على السطر، الرقيب قال نقطة على السطر.

بقي هو والسائق ينتظران ويتحاشيان الالتفات إلى الجثّة. يعرفان أنّ عليهما الحفاظ قدر الإمكان على مسرح الجريمة. وضع الرقيب موجودات زكريا في مغلّف ورقيّ، وحمل الهاتف، ولمّا رنّ من جديد، ارتعد وأوقعه أرضاً فانقطع الاتصال.

طال وقوفهما والشّمس على حافة الأفق البحريّ، فابتعد السائق خلف الأشجار لقضاء حاجته. ألقى الرقيب حوله نظرة دائريّة قبل أن ينحني فوق جمّ من الشوك ليسحب منه بسهولة مسدّس الغلوك الذي كان قد رصده فور وصوله. دسّه في جيبه. لا يزيد وزنه عن نصف كيلوغرام. يساوي ثمن هذا المسدّس النمساويّ الصّنع في السوق السوداء في لبنان ثلاثة مرتّبات شهريّة كاملة من أجر الرقيب.

وصلت سيّارة "الصليب الأحمر" في الخامسة والنصف. أنوارها مضاءة، وصفّارتها المتقطّعة تمزّق خلاء فصل الخريف. نزل منها شابّ ملتحٍ قصير القامة وفتاة هزيلة صهباء رمقها الرقيب بنظرة استغراب. استكشفا المكان، انقبضا قليلاً عند رؤية زكريا مبارك هامداً مدمّى وانتظرا مع العسكريّين. بقي الرقيب صامتاً يفرض هيبته على الجميع، والمسعفان جالسان

أرضاً يرسمان بقضبان الشجر خطوطاً في التراب ويتهامسان في مسائل لا يبدو أنَ لها أيَ علاقة بالجريمة التي استدعيا إليها عند الغروب في تلّ صفرا.

وصل الطبيب الشرعيّ قرابة السابعة بسيّارته الخاصّة. لم يظهر عليه أيّ وجل، ولم يطرح أيّ سؤال، ولم يرمِ السلام. تغامز المسعفان على شعره المستعار. طالب بمصباح كهربائيّ فجلبته الفتاة من سيّارة الإسعاف وسلّطته على القتيل بينما الطبيب جاثٍ فوقه. سأل أخيراً مَن وجد الجثّة، فتبرّع الرقيب بالجواب أنّهما أوّل من وصل إلى مسرح الجريمة بناء على اتّصال هاتفيّ مع المخفر، غير عابئ بالسائق الذي كان ينظر إليه مستنكراً كذبه. شدّ الطبيب جلد وجه القتيل تحت العين ليفحص بياضها. انتقل إلى العنق يدسّه، وبعده إلى الأصابع والأظفار، وطلب من الفتاة الاقتراب بالضّوء. أبعد ذراع الميّت عن صدره، وبدأ يحدّق في الفجوة التي أحدثها الطلق الناريّ وهو يهزّ رأسه كأنّه اكتشف أمراً ذا أهمّية. التفت فجأة إلى الرقيب: "هل عثرتم على سلاح في جوار القتيل؟".

أجابه سريعاً بالنفي، فرفع الطبيب كتفيه ومطّ شفتيه. ربّما شكّك في ما استنتجه حول الجريمة أو لم يصدّق كلام الرقيب.

كان مصاباً برشح وزكام في غير أوانهما، يعطس ويتمخّط، طلب من المسعف مساعدته فأجلسا الجثة ليكشف على الفجوة الخلفيّة التي أحدثها الطلق الناريّ، ثمّ طلب من الفتاة أن تضيء حول القتيل فوجد الرصاصة التي اخترقت جسده وسلّمها للرقيب محذّراً إيّاه من إضاعتها. يعرف الرقيب من حوادث أخرى. التفت إلى المزيد من البحث حول الجثّة فانطفأ المصباح في يد الفتاة؛ نفدت بطّاريته. طلب الطبيب من المسعفَين نقل القتيل إلى مستشفى البلدة، وقال متذمّراً إنّه لن يكتب تقريره في العتمة، وغادر موقع الجريمة وهو يسعل ويعطس من دون كلمة وداع ومن دون أن يستفهم حتّى عن هويّة الضحيّة.

ساعد الدركيّ السائق المسعفَين في نقل القتيل إلى المحمل، ثمّ صعد إلى الجيب وعاد إلى المخفر يصحبه الرقيب المتشائم من هذه الجريمة وهو يراجع في رأسه، مثله مثل الطالب في كلّية الطبّ، مغزى أن يكون هناك مسدّس على مقربة من القتيل والسبب الذي دفع الطبيب إلى السؤال عن سلاح الجريمة. لم يسعفه استئنافه احتساء الويسكي في رؤية الأشياء بوضوح.

دخلت سيّارة الإسعاف إلى باحة قسم الطوارئ في مستشفى البلدة من دون أن تطلق منبّه الخطر، فدار نزاع صامت بين الممرّضين الذكرين المداومين هناك

حول مَن يرمي على الآخر تعهّد القتيل، حتّى اقتنعا عند معاينة حاله المزرية وانبعاث الروائح العضويّة منه أنّ ممرّضاً وحده لن ينجح في المهمّة. تعاونا في نزع ثياب زكريا، ووجدا صورة فتاة لا تتجاوز الخامسة من عمرها مقطّبة على قميصه من الداخل لجهة قلبه. تأمّلها أحد الممرّضين: وجهها جميل، شعرها أشقر وعيناها تلمعان ذكاء وحياة. التفت عفوياً إلى وجه القتيل بحثاً عن شبه ظنّ أنّه وجده، ثمّ دسّ الصورة في جيب مبذله. نظّفا الجثّة وغسلاها بانتظار تعليمات الطبيب الشرعيّ. في المستشفى الحكومي الذي شيّد بهبة من الحكومة الإيطاليّة، لم يتعرّف إلى زكريا أحد أيضاً. أُسدل على عريه حرام سميك رماديّ اللون يشبه أغطية الجنود وأُدخل إلى البرّاد.

شاع الخبر أوّلاً أنّ المغدور غريب عن البلدة، وقد يكون عابر سبيل أو قادماً من قرية مجاورة. ثمّ التحقت ممرّضة شابّة بمناوبتها الليليّة، فتعرّفت إلى ثيابه وقبّعته وحذائه البنيّ والأبيض مكوّمين أرضاً في الممرّ إلى جانب برّاد الموتى. أخبرت مدير المستشفى أنّ القتيل جار بيت أهلها، زكريا مبارك، العائد حديثاً من المهجر بعد غياب طويل، وله في البيت شقيقة تدعى مرتا يجب إعلامها. اتّصل بها المدير على هاتف المنزل وطلب منها الحضور لأنّ شقيقها زلّت به القدم في مطلّ

الصنوبر ونُقل إلى المستشفى. أحسّت مرتا التي كانت تشاهد التلفاز بعد أن أعدّت العشاء الخفيف بانتظار عودة زكريا أنّ الأمر أخطر ممّا قال المدير. أغلقت الباب بالمفتاح خلفها كي لا يخطر في بال عمّتها اللحاق بها، وهرعت باتّجاه البلدة باكية غاضبة. عانقتها جارتها الممرّضة بقوة فتأكّدت أنّ زكريا توفّي. رافقوها لتتعرّف إليه فصرخت وقبّلته على جبينه. كان عارياً تماماً. رأت الفجوة في صدره. حاولوا مواساتها وأعطاها الممرّض صورة الفتاة الصغيرة وقال إنّ هذا كلّ ما وجدوه مع شقيقها. سألته وسط دموعها الفائضة مَن هذه، فقال إنّه لا يعرف، فأخذتها منه.

جلست مرتا في قسم الطوارئ تنتحب وتقول إنّها توقّعت ذلك. إنّه اتّصل بها هاتفيّاً مرّات عدّة ليفاتحها برغبته في العودة، وفي كلّ مرة، لم تنجح في ثنيه. تقلّد لهجته: "هذه بلدتي، هذا بيتي، أريد الجلوس صباحاً على مقعد الخشب تحت شجرة الجوز".

قاطعته بالقول إنّه لم يعد هناك من مقعد في ظلّ الشجرة؛ عبث به الأولاد ثمّ كسّروه وأشعلوا خشبه في عيد الربّ، فيضحك منها: "أريد الجلوس أمام باب البيت لأستأنس بالمارّة وأدعوهم إلى فنجان قهوة، وأتأمّل في البعيد ليلاً أضواء السيّارات النازلة إلى بيروت".

وفجأة تهمس بين دموعها أنّ أهله هم الذين قتلوه. تسكت ثم تصعّد لهجتها حتّى الصراخ: "نعم، أبناء عمّه هدّدوني وهدّدوه. قالوا إنّهم لن يتمرجلوا على امرأة وسينتظرونه عندما يعود. أخبرته وحذّرته لكنّه لم يكترث".

تتابع أسئلتها: "ما ذنبنا، نحن أولاد إبراهيم مبارك؟ فليسألوا جدّهم جبرائيل، هو الذي أراد ذلك، فليسألوا جدّتهم فيلومينا التي بنت هذا البيت بمالها واشترت كرم المحموديّة بمالها وأورثتهما لمَن تريد". تتوقّف لحظة قبل أن تطلق حكمها النهائيّ: "جدّتي فيلومينا هي التي أوصلتنا إلى هنا".

3

انقلبت حياة فيلومينا بلمح البصر. شكّ زوجها مقصّ تقليم الأشجار في شملة سرواله ذات صباح، وأبلغها ألا تحسب له حساباً على الغداء. وقف في الباب على غير عادته، والتفت نحوها يتأمّلها جالسة وبطنها أمامها. كانت تلك نظرة الحنان الوحيدة التي لمحتها في عينيه طوال حياتهما معاً. كان بخيلاً بالكلام. لم يشتكِ يوماً من قلّة ولا من وجع. رأت دماً قانياً فوق سرواله الداخليّ الأبيض ولم تسأله السبب. يطلق بين حين وآخر تنهّداً عالياً وهو ينظر إلى سقف البيت، لكنّها لم تتوقّع أن يدير ظهره ويتركها وهي حامل في شهرها السابع. خطا خارج البيت. رآه حطّابون من تلّ صفرا يسير نزولاً باتّجاه مطلّ الصنوبر وانقطع أثره. ابتلعته الدنيا.

رُزقت بصبيّ في عيد البشارة وأسمته جبرائيل. تأخّرت في عمادته على أمل أن يظهر والده، ولمّا بات قادراً على السير بمفرده، عقدت النيّة على السفر بدورها وتركه لعناية أختها كاترينا. قذفتها الحاجة والبؤس المتكوّم حولها والأمل في العثور على يوسف مبارك، زوجها. قيل لها أنّ ابنها لن يتعرّف إليها يوم تعود، ومن

تبكي وتحكي. لا تصدّق أنّه عاد لأنّه فقط اشتاق إلى البيض بكشك والزيتون الأخضر المرّ، أوّل قطاف، وإلى جبنة الماعز. غرامه جبنة الماعز، يأكل منها كلّ يوم لو لقمة واحدة، يأكلها مع البطيخ الأحمر، مع مربّى الإجاص المغطّس بالسكر خصوصاً مع العنب. يقول إنّ جدّه علّمه أن يأكلها مع العنب الحلو المذاق. لا يأكل كثيراً، ومع ذلك يدور الدنيا ويعود بسبب جبنة الماعز. تسترسل بصوت هادئ، ثمّ تجهش بالبكاء وتتوجّه إليه بالكلام وهو في البرّاد في الغرفة الملاصقة: "عنيد، لم تصدّقني، أنذرتك أنّهم سيقتلونك وقتلوك".

لم يسألها أحد في المستشفى مَن هم هؤلاء الذين قتلوه. تكلّمت على سجيّتها في البيت حيث رافقتها إحدى صديقاتها وانضمّت إليهما نساء من الجيرة حاولن تهدئتها وهي تبكي عليه وعلى حالها. صارت وحيدة من جديد في هذا البيت الكبير، هي وراحيل، وراحيل على حافة قبرها، ماتوا جميعهم. لم يعطوها مفتاح غرفته لتأتيه بثياب. أوراقه وهاتفه وكلّ ما وجدوه في جيوبه أخذها الرقيب؛ قال إنّها أدلّة جنائيّة.

"ماذا أفعل الآن، هل أخلع الباب؟".

تبكي على نفسها وتعود إلى أخيها. تتأسّف على طيبة قلبه وكرمه وأخلاقه، ثمّ تنفجر باكية من جديد. قال مرّة إنّه عاد ليمضي باقي سنوات حياته بين أهله

الأفضل تأجيل رحلتها حتى يشتدّ عوده. خافت أن تخور همّتها فلم تتراجع. قريبة لها أخلّت في آخر يوم بوعدها لمرافقتها؛ خافت ممّا يُحكى عن أهوال السفر. كان بحوزة فيلومينا مال يكفيها بدلاً لكلفة الإبحار ذهاباً وبعض النفقات الضروريّة ولا شيء للعودة. تنهدّت عميقاً، وقالت في نفسها: "ما حدا لحدا"، ومشت قدماً.

أُصيبت بعد ساعة أمضتها على ظهر الباخرة بدوار البحر، فبدأت أذناها تطنّان، وصار يكدّها العرق حتّى اعتقدت أنّها ستموت هناك معلّقة بين السماء والماء وقمم جبل لبنان لا تزال تحت نظرها. وصف لها متمرّسون في ركوب البحر شراب الزنجبيل فهدأت ونزلت في مرفأ مرسيليا. سمعت في محطّة سكّة الحديد رنين جرس يدوّي ويعلن وصول القطار، فركعت أرضاً وسط المسافرين ورسمت إشارة الصليب إذ خُيّل إليها أنّهم يحملون القربان المقدّس إلى مريض في الرمق الأخير كما يحدث في قريتها. أوصاها سمسار يهوديّ بأن تعتني بهندامها، وتشتري حذاء جديداً ليسهل دخولها إلى نيويورك، وقبل أن يودّعها قال لها: "استحمّي دائماً، فأنت جميلة والحظّ سوف يبتسم لك".

فاجأها وهي تنزع قماط رأسها وتسرّح شعرها الطويل. هدّدته بالإشارات من يديها أنّها ستذهب إلى القبطان وتشكوه. نامت وحدها وتذكّرت أنّها لم تختلِ بزوجها سوى مرّات معدودة. وفي اليوم التالي، إذ ثابر البحّار على التودّد إليها، نجح أخيراً في إقناعها بمرافقته إلى القمرة حيث اكتشفت وشم سفينة بأشرعتها الثلاثة مدقوقاً على صدره الخالي كلّياً من الشَعر. لم يكن سهلاً عليها نزع ثيابها التي لم يطالبها زوجها بنزعها في المرّات المعدودة التي دخلها فيها.

وحدها تتكلّم العربيّة على ظهر السفينة المليئة باليهود الروس والفقراء من جنوب إيطاليا. بكت شوقاً لبلادها وهي تصغي إلى عازف كمان بهيّ الطلعة قادم من بلدته في روسيا البيضاء، وهي لم ترَ ولم تسمع آلة الكمان في حياتها. أنصتت إليه يلعب موسيقاه أمام موج البحر حتّى ظهرت طيور النورس، فتعالت صرخات الوصول إلى اليابسة وبدأ الركّاب ينتظرون رؤية مدينة نيويورك في الأفق. ودّعها بحّار مدغشقر وسُجّلت فيلومينا في لوائح "ايليس أيلند" عام 1904 على أنّها قادمة من سوريا وعمرها ستّ وعشرون سنة، وخالية من الأمراض المعدية والعاهات. خرجت من الجمارك وسط كرنفال من أزياء فقراء العالم، ونادت "يا أولاد العرب!" على ثلاثة رجال يعتمرون الطرابيش تبيّن أنّهم

قادمون من حلب. دلّوها على فندق صغير يرتاده "السوريّون" المقيمون في نيويورك. سألت هناك عن يوسف مبارك: حنطيّ البشرة، شارباه معقوفان إلى أعلى، يتنحنح وهو يحكي، فأضحكت الرجال ولم تحصل منهم على ما يسعفها.

تذكّرت الفرنسيّ مسيو لاغرانج الذي أوصاها به البحّار الخلاسيّ كمكافأة على رائحتها الطيّبة. وجدته في بروكلين عجوزاً توفّيت زوجته قبل أسابيع، فرحّب بها قائلاً في سرّه إنّ القدر أرسل إليه هذا الوجه الصبوح. تفاهما بما تيسّر لهما من الأصوات وحركات الأيدي وتقاسيم الوجه، وفي صباح اليوم التالي، أخرجت من حوائجها كيساً ثقيلاً فتحته أمام الرجل ونجحت بالإشارة إلى الشرق البعيد والركوع وتقبيل الأرض بإفهامه أنّها جلبت معها تراباً من مدينة القدس. فغر فاه مدهوشاً وتفحّص قبضة منه وصفّق فرحاً. عرف أنّها صاحبة فطنة إضافة إلى جمالها، فبدأ يقصّ معها ويخيط أكياساً صغيرة من القنّب يملآنها تراباً ويكتب هو عليها "أورشليم" بالإنكليزيّة. لم تكتفِ فيلومينا، فحملت قطعة خشب من التي يجمعها لاغرانج لإشعال المدفأة في بيته، وطلبت منه أن يقتطع منها نثراً صغيرة، وراحت تضعها في أكياس أخرى وهي تمثّل المصلوب، تتألّم وتمدّ ذراعيها، ففهم قصدها وزاد

إعجابه بها وكتب على الأكياس "عود الصليب". كذلك استحصلت على نسخ من **الإنجيل** بالعربيّة وجدتها لدى تاجر قادم من حيفا ستقول عنها إنّها مكتوبة بلغة المسيح الأصليّة. ألبسها لاغرانج ما اعتقد أنّه رداء نساء فلسطين، ورمى على رأسها وشاحاً أبيض، وربط في عنقها صليباً نحاسيّاً كبيراً. علّمها كيف تتعرّف على أبراهام لنكولن من ذقنه الكثّة فوق فئة الدولار الواحد، وتوماس جفرسون بالشّعر الأبيض على الدولارين، وأرشدها إلى جماعة إنجيليّة متشدّدة في إيمانها، "مجيئيّو اليوم السابع"، مقيمين في إحدى ضواحي المدينة. صارت تدور على بيوتهم. تدقّ الأبواب وهي تردّد من دون انقطاع كلمات: جيزوس، هولي كروس، بايبل، جيروزاليم، التي لقّنها إيّاها الفرنسيّ.

ازدهرت تجارتها، وأضافت إلى بضاعتها المحمولة على الكتف المطرّزات وقطع السجّاد الصغيرة. طردها المزارعون عن أبواب بيوتهم. نبحت في وجهها كلاب الحراسة. شرقت بضاعتها ولم يصل اللصّان إلى أوراق العملة التي كانت تخفيها في صدرها. تحسّنت لغتها الإنكليزيّة، وعادت إلى لقاء أناس من قومها لتطمئنّ إلى ابنها في حال قدوم مسافرين جدد من بلدتها أو جوارها. تعرّفت إلى رجل يُوصل المال إلى الوطن فأرسلت إلى ابنها المكاتيب وإلى أختها بعض الدولارات

مكافأة اقتطع الرجل نصفها. وفي إحدى جولاتها على الأرياف القريبة، اشترى منها هولنديّ ملتحٍ أكياساً من خشب الصليب رأته يرميها في أساسات منزل بدأ تشييده حماية للبيت ولساكنيه من أيّ شرّ.

أمضت سنوات في تجارتها وهي تعود في المساء لتودع محصول النهار مع مسيو لاغرانج الذي لم يعد يخفي عنها سرّاً من أسراره، وما لبث أن توفّي بعد أن ملأ البيت سعالاً نتيجة نزلة صدريّة حادّة. لم يفارق الحياة قبل أن يُوصي فيلومينا بالتمتّع بكلّ ما يملك، مؤكّداً ومكرّراً أنّ ليس له أقارب في نيويورك ولا في مسقط رأسه في سان بول دو فانس، جنوب فرنسا. تركع إلى جانب سريره وتصلّي على نيّة شفائه فيوقفها ويطلب منها أن تنهض لأنّه لا يؤمن بهذه الخرافات.

صدقت شكوكه، إذ بعد وقت على وفاته وقد لبست عليه فيلومينا الأسود أربعين يوماً، حضر شابّ قال بالفرنسيّة إنّه ابن شقيق لاغرانج، فسألته بالإنكليزيّة كم إصبعاً لدى الفقيد في يده اليسرى، فقال: "أربعة"، فقالت: "لا، خمسة، وإذا عدتَ إلى هنا أشتكي عليك للشرطة وتدخل السجن"، فغادر ولم يعد. ويوم سمعت صبيّاً يعدو صارخاً وملوّحاً بجريدة "العالم هذا المساء" التي يبيع أعدادها في الشوارع أنّ الحرب انتهت، أدركت أنّ ساعة عودتها إلى ابنها قد دنت. باعت ما

أمكن بيعه، حملت ما تيسّر حمله، وانتظرت رسوّ "لا روشيل" في مرفأ نيويورك لتعود على متنها كفأل خير. سألت عن بحّارها فأخبرها القبطان أنه تطوّع في البحريّة الفرنسيّة وقُتل في الهجوم على مضيق الدردانيل. تذكّرت أيضاً عازف الكمان، وانتبهت كم قسا قلبها بين الرحلتين.

أقامت في ضيافة أختها كاترينا، فغصّ البيت بالفضوليّين يتأمّلون المهاجرة العائدة تحمل حقيبة يد مذهّبة وتضع على رأسها قبّعة فاخرة تشبه قبّعة زوجة الجنرال الفرنسيّ المبتور اليد الذي أجرى أخيراً زيارة تفقّدية إلى قرى الجبل. وجدوها جالسة تضمّ ابنها وهو لا يحيد بنظره عنها، يتفحّص أنفها وتجاعيد وجهها، يفكّ البروش الخنفساء عن ياقة سترتها، يخشخش بأساورها.

ارتبك ذهنه بعد أن كان في سنوات طفولته ينادي خالته "أمّي"، وينادي ابن خالته "خيّي" وينام معه في السرير نفسه، وخالته لا تصحّح له خشية أن تغيب أمه بلا رجعة كما فعل أبوه. لكنّه التصق بها منذ اللحظة التي نادته فيها خالته بفرحة عامرة: "عادت أمّك!".

أخبرت فيلومينا الحضور عن تمثال الحرّية، ووصفت لهم عيون الصينيّين وأنوف السود، وعرضت عليهم بطاقات بريديّة يظهر فيها جسر بروكلين المعلّق في

الهواء ونساء يمتطين ظهور الفيلة في الحديقة العامّة. طلبت مساعدة رجلين لسحب الصّندوق إلى وسط الردهة. فكّت الأحزمة عنه، ثمّ فتحت الأقفال في الوقت الذي صارت فيه الغرفة تضيق بالقرويّين. أخرجت أوّلاً ساعة الحائط، أوقفتها على الطاولة وشدّت الزنبرك بالمفتاح وطلبت من الحضور السكوت لسماع تكتكتها ومتابعة رقّاصها، وبدأت تعلّمهم قراءة الوقت وتحرّك العقارب لتمتحنهم هم المكتفين بشروق الشمس وغروبها. فتحت من بعدها علبة تحوي دزينة من فناجين القهوة وصحونها مرسوم عليها زهور وطيور يابانيّة بقي قسم منها محفوظاً في بيت آل مبارك بعد مئة عام. أتبعتها بمطحنة للبنّ، وبآلة أكورديون صغيرة، وعدسة مكبّرة سلّطتها تحت شعاع الشّمس على ورقة جريدة فأحرقتها. وزّعت عليهم أكياساً صغيرة من مسحوق الأسبيرين قائلة إنّ عليهم تذويبه في الماء وشربه وهو يشفي من أوجاع الرأس والمفاصل والرّشح. أعطت النساء أحجار النيل لمزجها مع ماء غسل الثياب، وكانت الخاتمة مع غراموفون ماركة "صوت معلّمه"، الكلب الجالس على قفاه ينظر إلى البوق، وأدارته ليخرج منه صوت كلوديا موزيو متقمّصة دور ديسديمونا في أوبرا عطيل. ذُهل الحاضرون،

واعتقد بعض البسطاء من بينهم أنّهم في حضرة ساحرة بقوا يرتابون منها طويلاً بعد إقامتها بينهم.

برنامجها واضح وبسيط: تبني بيتاً لابنها ثمّ تجد له زوجة ما إن يبدأ حلاقة ذقنه. أوصت على أفضل المعلّمين صنعة. تتدخّل إذا ما ردّ البنّاء حجراً لم يكن تقصيبه مناسباً، وكانت تجلس طوال النهار تحت ظلال شجرة تراقب أعمال الحفر. تطلب من العمّال تعميق الأساسات ورفع السقوف عالياً. "لا أحد أحسن من أحد"، تقول في إشارة إلى الوجهاء الذين يشيّدون بيوتاً مرتفعة. ومثل العائلات القليلة القادرة، بنت طابقاً من الأقبية وآخر مغطّى بالقرميد ومكوّناً من الرّدهة الوسطى وسقفها المرسوم وحولها الغرف من كلّ جانب. تدفع الأجور والأثمان نقداً. تصرّ على الحجر السمّاقيّ وعلى خشب القطران وتشرف على تمتين قطع القرميد وتشبيكها واحدة واحدة.

استغرق بناء البيت سنتين، ومضت سنة كاملة في اختيار المفروشات وصناعتها. تنزل فيلومينا إلى سوق النجّارين في بيروت لتوصي على الأسرّة. تدقّق في قماش المقاعد وتشرف على تنجيدها. كان في ذهنها دائماً وهي تختار الألوان أثاث تلك البيوت التي دخلتها في ضواحي نيويورك لبيع تراب القدس. أُعجبت فيها بأغطية الطاولات ومربّعاتها الحمراء والبيضاء، وبالسّتائر

الشفّافة، وبالكرسي الهزّاز وبخزانة المطبخ التي تُرصف فيها كؤوس النبيذ وآنية الشاي الفاخرة. أتمّت البيت على أكمل وجه. زرعت حوله أشجار الجوز وانتقلت إليه مع ابنها.

"تبلّدت" من جديد: لا تغادر الحارة، تجالس النساء، تشرب معهنّ القهوة وتسألهنّ عن "الأخبار" إذا غفلنَ مرّة عن أحاديث النميمة. تردّى هندامها وأصابها الشيب والبدانة، ولم يبقَ من رحلتها الأميركيّة سوى كلمات إنكليزيّة يسبقها لسانها في لفظها إذا تأخّر تذكّرها للتسمية العربيّة. لكنّها أخرجت بعد سنوات ثوباً فاخراً من الساتان الأزرق مع شال من الحرير جاءت به من وراء البحار. ارتدته يوم زواج ابنها جبرائيل وكانت تحتفظ به لهذه المناسبة دون غيرها، فكان حفلاً استعادت فيه أمّ العريس للمرّة الأخيرة في حياتها لمحة عابرة من جمالها وأنوثتها. اختارت بنفسها زوجة ابنها بعد تحرّيات طويلة، وجالستها تخبرها عن الرجال ومتطلّباتهم، ثمّ اختارت أن تنام في القبو وتركت لابنها وزوجته الطابق العلويّ بأكمله.

بعد أن حقّقت مبتغاها من بناء البيت وزواج جبرائيل بالإضافة إلى شراء كرم كبير، المحموديّة، في منحدر مطلّ الصنوبر، انتكست صحّة فيلومينا ولازمت الفراش. وفي يوم سمعت فيه وقع خطى ابنها يصعد درج البيت،

4

علّق جبرائيل صورة لأمّه في البيت، وسهر على أن تبقى ساعة الجدار تدور وفاء لصاحبتها، فاقتنى ساعة جَيب ليضبطها عليها في حال نفذت طاقتها في غيابه. وإذا تذكّر فيلومينا، كان يدير الغراموفون ويجلس يستمع إلى أغانيه الإنكليزيّة التي لا يفقه من معانيها شيئاً يُذكر. يدين لأمّه بشعور الاطمئنان إلى أنّه جالس فوق كنز من الذهب لن يعرف قيمته إلّا إذا أطلّت الأيّام الصعبة بقرنها. يصدّق وصيّتها فهي لم تكذب عليه يوماً، ويتذكّر جيّداً كيف كانت تتأخّر وحدها ليلاً في ورشة بناء البيت. نزل مرّة تلو المرّة إلى القبو. عاين الزوايا، لامس الحجارة، وراح يضرب الأرض بمطرقة ويصغي أملاً بوجود فراغ ما خلف الحجر لكنّه تفادى الحفر؛ أجّله.

أتاحت له أمّه أن يمضي حياته من دون عمل مُضنٍ، سائحاً في هذه الدنيا، مُفترياً على بعض الأشغال مثل المتاجرة بما تيسّر له. يتملّك مطبعة بكامل عدّتها ثم

الوصل، ولفتته كلمات مثل "ذهب" و"أساسات" و"خراب"، ما أثار لديه فضولاً لم يكن قادراً على تأجيله. قصد بيروت ودخل مكتبة في شارع بلسّ، وطلب من صاحبها الجالس وحيداً أن يترجم له هذه الأسطر مُبدياً استعداده لدفع "بدل الأتعاب". لكنّ الرجل كان رحباً. ألقى على الورقة نظرة سريعة فابتسم وراح يترجمها له مجّاناً بصوت عالٍ دعاه جبرائيل لخفضه وهو يلتفت نحو باب المكتبة خشية أن يدخل عليهم زبون فجأة:

> ابني الحبيب جبرائيل، أتمنّى لك الحياة الطويلة والسعادة. اعلمْ أنّني شيّدت البيت ووضعت صندوقاً مليئاً بالليرات الإنكليزية الذهب في أساساته. إنّ الحفر في قعر البيت لاستخراج الذهب سوف يتسبّب في خرابه فلا أنصحك مطلقاً بذلك. لا تخبر السرّ إلّا لابنك البكر وحده وهو يخبره لابنه، اعتنِ بخالتك وابن خالتك كما اعتنوا بك واذكز أمّك بالخير والصّلوات.

لمّا انتهى صاحب المكتبة من قراءتها، شكره جبرائيل بحرارة وكاد يضمّه بين ذراعيه قبل أن يخرج من باب المكتبة عائداً إلى بلدته وهو يبتسم سعيداً بعد أن تأكّدت آماله على أكمل وجه. ونسي الرسالة في يد صاحب المكتبة...

نادته بصوت ضعيف من القبو وطلبت منه أن يغلق الباب ويقترب من سريرها. همست له أنّها ستموت يوم الأحد. رجته أن يولي العناية لخالته كما اهتمّت هي به في غيابها، ثمّ أعطته رسالة مختومة وجعلته يقسم ألّا يفتحها ويقرأها إلّا بعد مرور عام على وفاتها، وأنّ فيها سرّاً مهمّاً، ولا يجب في أيّ حال من الأحوال أن تقع في يد إنسان غيره أيّاً كان.

توفّيت بالفعل مساء يوم الأحد ولم يصبر جبرائيل طويلاً. فتح الرسالة قبل أن يغلقوا على أمّه باب المدفن الذي طلبت من معلّمي البناء تشييده لعائلتها فور انتهائهم من البيت وبالحجارة نفسها، وزيّنته بملاكَين من الرّخام، وحفرت فوق بابه: "أنا هو الطريق والحقّ والحياة، مَن آمن بي وإنْ مات، فسيحيا". وجد أنّ الرسالة لا تتعدّى خمسة أسطر مكتوبة بالإنكليزيّة التي يعرف منها كلمات متفرّقة تلقّنها من أمّه ولن يتعرّف إليها مكتوبة في أيّ حال. كان سريع التدبير فرسم كلّ كلمة من الكلمات على قصاصة ورق مستقلّة، وصار إذا التقى الصيدليّ أو أستاذ المدرسة سأله هل يحسن الإنكليزيّة ليطلب منه كتابة المرادف العربيّ لإحدى عبارات الرسالة، وكان نادراً ما يقصد الشخص نفسه مرّتين حرصاً منه على الكتمان. حاول ترتيب الكلمات فلم يحصد سوى سلسلة غير مفهومة تنقصها أدوات

منه بعد أن نما إليه أنّ الراعي يسرق منه رؤوساً يبيعها للّحامين في القرى. صفقات تنتهي غالباً بخسارة تمكّنه فقط من الادّعاء أنّه يجني المال لكسب معيشة عائلته ويخفي بها عمله الحقيقيّ كمُرابٍ بفوائد معتدلة.

علّق صورة فيلومينا وعلى رأسها منديل مطرّز وبيدها كتاب صغير الحجم، **العهد الجديد**، وجدته في الاستديو حيث وقفت أمام المصوّر في نيويورك. وجهها جميل لكن قسماتها مشدودة. لم يكن المصوّرون يطلبون من زبائنهم الابتسام. لم يجد أثراً لوالده، وفيلومينا تمنّعت عن تذكّر أيّ أوصاف لزوجها؛ نسيته، نسيته عمداً، عقاباً له على فراره. صار يطيب لجبرائيل الاعتقاد أنّ والده كان مغامراً يحبّ التحدّي، ويتخيّل له بلداناً في أقاصي الأرض، شمسها حارقة، سافر ليستقرّ فيها، ودروباً وعرة وغابات توغّل فيها. ويوم قاده صديق لمشاهدة فيلم "ذهب مع الريح" عدّل طموحاته بخصوص والده وقرّر بينه وبين نفسه أنّه يشبه الممثّل كلارك غايبل، ولِم لا، هو كلارك غايبل بذاته. ذهب والده إلى أميركا وعمل في السينما واتّخذ اسماً فنياً وها هو يظهر على الشاشات. عاود جبرائيل النزول سرّاً إلى المدينة ليشاهد الفيلم للمرّة الثالثة والرابعة في شهر واحد، ولم يفوّت أيّاً من أفلام كلارك غايبل اللاحقة مع كلوديت كولبير أو هايدي لامار، لكنّ متعته الكبيرة كانت

دائماً في متابعة مشاهد العناق والفراق بين ريت باتلر وسكارليت أوهارا كأنّ له يداً وإرثاً عائليّاً في قصّة الغرام والانتقام هذه. هو أيضاً جميل الطلعة أو هكذا كان يُخيّل إليه، وحاول إطلاق شاربين نحيفين على طرف شفته العليا مثل كلارك غايبل إكمالاً لغوايته، لكنّه لم يعرف كيف يشذّبهما في الصّباح فتخلّى عنهما سريعاً.

كان ضعيفاً أمام النساء، دنيئاً، لا يفوّت فرصة للتحرّش بما تطاله يده، يعوّض حرمانه حياة العزوبيّة. تقول زوجته إنّه لا يوفّر عابرات السبيل حتّى البدويات الموشّمات، قارئات الطالع والعاملات في قطاف الزيتون. وتخبر مذعنة أمام ارتكاباته أنّ امرأة قادمة من البقاع طرقت بابهم يوماً حاملة طفلاً على ذراعها وطلبت محادثته على انفراد لتخبره أنّ الولد الذي بين يديها هو ابنه. ذكّرته كيف طاردها مرّة إلى دمشق وهي لم تعاشر غيره ولم تقترب من زوجها الذي بقي مريضاً لسنوات. أعطاها مالاً وصرفها، عادت مرّة ثانية فقال لها أعطِني إيّاه إذا كان ابني، وحاول أخذ الولد منها عنوة فصرخت خائفة وفرّت ولم تعد.

وحده الكلام سلاح زوجته العاجزة عن إصلاحه: "لو تسافر مثل أبيك ولا تعود، لكانت الدنيا علينا بألف خيرا!".

وعندما يصرّ على أن تلد له صبياناً كانت تسخر منه: "إذا كنت تعرف كيف يُصنع الصبيان، فلا تتأخّر، ولماذا يعطينا الله صبيّاً في كلّ حال، ليكون قصاصاً لنا، مثلك أو مثل والدك؟".

أنجبت له ولداً ذكراً بعد أربع سنوات على زواجهما، كادت الدنيا تهوي خلالها بينهما إلى قعر سحيق من الاتّهامات والشتائم لو تأكّدت ظنونه التي يطلقها بالصوت العالي أنّ زوجته عاقر. أتت بالصبيّ ولم يأتِها الحليب، فعثر في قرية مجاورة على مرضعة عاد بها حاملاً طفلها وأسكنها مع عائلتها في قبو البيت، ويصرّ على أن يهتمّ هو بأكلها ويحمل لها ابنه إبراهيم بنفسه مراراً في اليوم، ويجلس إلى جانب المرضعة وهي تعطي الطفل ثديها. أبقاها في البيت متكفّلاً حاجاتها وحاجات عائلتها رغم بلوغ ابنه عمراً متقدّماً، وبعد أن غادرت إلى قريتها حملت من جديد، وعندما شبّ ابنها شبّهه كثيرون هناك بجبرائيل مبارك من بلدة تلّ صفرا.

حملت زوجته ستّ مرّات، لكنّ الحياة لم تُكتب سوى لصبيّين وبنت ظهر الاختلاف الخلقيّ بينهم باكراً. الصغير، يونس، أبيض عيناه فاتحتان، نسب جبرائيل جماله إليه بطبيعة الحال، والبكر، إبراهيم، والد زكريا ومرتا، أسمر البشرة نحيل القدّ، والأخت مريضة، أسماها راحيل. أعصابها تالفة وكهرباء الدماغ عندها مضطربة،

كان يونس مشاكساً من صغره، يغادر البيت عند أوّل صرخة من شقيقته راحيل إيذاناً بنوبتها العصبيّة. يفرّ مع رفاق له من المدرسة في الأيّام المشمسة، يسخر من شقيقه المجتهد الذي تحمّر وجنتاه خجلاً إذا تكلّم مع إحدى فتيات البلدة، بينما مشى هو باكراً على خطى والده في اصطياد الجنس الآخر. لكنّ جبرائيل يريد له حياة أخرى ولم يُعرف من أين هبطت عليه هذه العقيدة التي كانت تجعله يعيد شعاره في كلّ مناسبة: "أنا أؤمن بالعلم"، ويوم كرّرها للمرّة الألف أمام يونس سأله الأخير: "ولماذا لم تتعلّم؟"، فوقعت بينهما مشادّة ختمها جبرائيل بصفعة صريحة على خدّ يونس الذي خرج ولم يعد إلّا بعد أسبوع. صار يبتزّ والده، يقايض حسن سلوكه بالمال ينفقه من دون قاعدة، ينزل إلى كباريهات بيروت وجبرائيل يؤنّبه: تدفع المال للحصول على النساء؟ "أنا لم أدفع فلساً واحداً – طبعاً يكذب – مقابل النساء اللواتي حظيتُ بهنّ، وهنّ كثيرات". استمر جبرائيل في إعطائه المال بصعوبة وتشدّد دائمين حتّى اليوم الذي اشترى فيه الابن سيّارة شيفروله حمراء وبيضاء من طراز كورفيت واصلة للتّو من الولايات المتحدة ورمى على والده مهمّة تسديد أقساطها إلى الوكيل بعد مشادّة جديدة بينهما حاول فيها يونس ردّ الضربة إلى أبيه. فما كان من جبرائيل إلّا أن سارع

سهولة. شغلته النساء على جري عادته، لكن ليس لوقت طويل هذه المرّة، فقد اضطرّ إلى الخضوع إلى عمليّة استئصال البروستات المتضخِّمة، فضمرت رغبته الجنسيّة بعد ذلك وصار يرغي ويزبد على الأطبّاء الذين وصفوا له دواء أفقده شهيّته للنساء. وكان من نتائج ذلك أن بدأ يتقرّب من زوجته ويحنو عليها، فنفرت منه يوماً وأطلقت في وجهه ما يفترض به توقّعه من مرارة لسانها أنها لا تدير مأوى للعجزة. لكن وراء الكلام الجارح الذي ورثته عن والدها الذي قيل عنه "إذا حكّاك أبكاك"، كانت زوجة مثاليّة، قلباً أبيض وتوزيعاً لمشاعر الأمومة بالتساوي. شغله الدائنون الذين يكتب لهم سندات مقابل "بضائع مختلفة" تمويهاً للربى الصريح. شغله ولداه والأصحّ شغله يونس، الصغير بينهما. كان البكر مطيعاً، يتّجه كيفما يرسله والده. التحق كتلميذ داخليّ في مدرسة للرهبان الكبّوشيّين فصار ضليعاً باللغة اللاتينيّة، وحفظ عن ظهر قلب أشعاراً لا تُحصى بالعربيّة والفرنسيّة بقي حتّى وفاته يستشهد بها. إذا جاء ذكر البرد في روسيا، ألقى على مسمع الحاضرين مقاطع من فكتور هوغو حول هزيمة نابليون الأول أمام أبواب موسكو في فصل الشتاء القارس، وعند مواجهة المصاعب والاستخفاف بالحياة ينهل أبياتاً من أبي العلاء المعرّي.

قال الطبيب المتخرّج من فرنسا قبل أن يسألهما عن حالات مماثلة في العائلة بينما الأب ينظر إلى جهة زوجته شزراً. ولمّا أخبراه كيف تضرب رأسها بالجدار أثناء نوباتها، أوصاهما ألّا يغفلا عنها لأنّها قادرة على إيذاء نفسها أو غيرها. حملت الأمّ صليب ابنتها ورفضت إدخالها إلى المصحّ، ولمّا كبرت البنت، صارت تجلس في ردهة البيت فوق أريكة وتغطّي جسمها بحرام من الصّوف وترمق الداخلين والخارجين من البيت بنظرة عدائيّة أو ترمي نحوهم كلاماً غير مفهوم. وبقيت أمّها تطعمها بيدها وتغنّي لها أراجيز الأطفال لتهدأ وتطوّقها بذراعيها لتنام. تقضي حاجاتها وحدها وتمنعها أمها من إقفال باب الحمّام من الداخل. بكى الأب سرّاً مرّتين أو ثلاثاً عندما تأكّد له مرض ابنته غير القابل للشفاء وهو يعيد السؤال ناظراً إلى السماء: "من أين جاءتنا الكهرباء هذه، يا ربّي؟".

كما بقي يحاول البحث عن سوابق في عائلة زوجته لعلّه يجد تفسيراً يريحه قبل أن تشغله شؤون الدنيا من جديد.

شغله الكرم الذي اشترته له أمّه وحسده الجميع على تربته الحمراء وموقعه المتدرّج. فكّر في استثماره أو

بصورة فاجأت الجميع بمَن فيهم يونس نفسه إلى دفع ثمن السيّارة كاملاً من دون أي تذمّر، ومن يومئذ لم يعد يرفض لابنه الصغير طلباً حتّى أنّه فتح له حساباً في أحد المصارف يأخذ منه ما يشاء في الوقت الذي كان يقتّر على إبراهيم الذي لم يطالبه يوماً بغير حاجته.

انطوى العمر وأحسّ جبرائيل بالضّعف وخفقان القلب، فخاف ولزم البيت، ونُقل عنه قوله أمام أحد أصدقائه إنّ صيامه الاضطراريّ عن النساء هو الذي سيعجّل في نهايته. أصرّ أن تؤخذ له صورة فوتوغرافيّة أخيرة فاستدعى المصوّر المقيم حديثاً في البلدة. حمل الأخير الصبيّة الخشبيّة بلباس البحر، تلك التي تبتسم ملوّحة بفيلم "اكتاكروم" الجديد، ورماها داخل الاستديو خشية أن يسطو أحد عليها في غيابه. علّق في كتفه الآلة مع الفلاش الكهربائيّ المستدير. أقفل الباب بالمفتاح دورتين ومشى فلحق به الصغار يصفّرون لمَن تخلّف من رفاقهم فيزداد عددهم في الطرقات والمصوّر يبتسم باعتزاز وهو يقودهم نزولاً حتّى وصل بهم إلى بيت آل مبارك. لم يعترضهم أحد هناك، فدخلوا وراء المصوّر كالمختلسين إلى الرّدهة الواسعة المليئة بالأبناء وبأقارب جبرائيل لجهة أمّه، وبينهم ابن خالته الذي ترعرع معه والجيران، ورجال جاؤوا يستدينون منه المال، وآخرون حضروا يطلبون مهلة إضافيّة لسداد

المتوجّب عليهم، والجميع يقاومون الحرّ بشرب كؤوس الجلّاب والليموناضة تطوف بها زوجته عليهم. زوجته التي بقيت حتّى وفاتها تعطي أحفادها ما يصل إلى يدها من مال في الخفاء عن جبرائيل وتستقبل زوّار بيتها بحفاوة، حتّى في ذلك اليوم الذي كان يجلس فيه زوجها شاحباً على الكنبة ويتنفّس بسرعة فيما تعقد له ربطة العنق وتضرب المشط في شعره الأشعث استعداداً. الصّورة ستكون نصفيّة، لا حاجة به إلى ارتداء البذلة كاملة، فبقي حافي القدمين يغطّي نصفه السفليّ بسروال البيجاما الأزرق المقلّم. ركع المصوّر على رجل واحدة، فحسّن المريض جلوسه قليلاً وابتسم عندما لمع ضوء الفلاش في وجهه منيراً الرّدهة، فصفّق الصغار وأطلقت راحيل المتكوّرة في إحدى الزوايا صرخة حادّة كأن الوهج الفضيّ الباهر كشف سترها في الرّدهة الواسعة المليئة برائحة جبنة الماعز. وصلتهم في الصباح هديّة من صديق لجبرائيل في الجرد العالي: "ضرف" من جلد الماعز فاحت رائحته من المطبخ ما إن فُتح وأُخرجت منه كتل الجبن المالحة والشهيّة. أخذ له المصوّر لقطة أخرى من باب الاحتياط، فاكتفت ابنته المريضة بزمجرة خفيفة عند لمعة الفلاش الثانية.

في غسق هذا النهار، ولمّا فرغ البيت تماماً من الزائرين، استغل جبرائيل غياب ابنه يونس، الوحيد

الذي تخلّف عن هذا الاجتماع، ودخول زوجته إلى المطبخ لغسل الأواني وتنظيفها، ليطلب من ابنه البكر، إبراهيم، الاقتراب من حيث كان ممدّداً. التفت ناحية راحيل فوجدها تخفي رأسها كالعادة تحت اللحاف فلم يخشَ وجودها، وبدأ يخبر إبراهيم تفاصيل وصيّة جدّته كما ترجمها له صاحب المكتبة في شارع بلسّ في بيروت. لمّا وصل إلى ثروة الذهب المزروعة في أساسات البيت، أُصيبت راحيل بنوبة سعال فجائيّة وحادّة اضطرّت معها إلى نزع الغطاء عن وجهها والجلوس لاستعادة أنفاسها، فتوقّف والدها عن الكلام حتّى عادت إلى وضعيّتها السابقة. أكمل جبرائيل توصيات فيلومينا وأضاف إليها بنوداً تناسبه. لم يستخرج من ابنه أكثر من ابتسامات مشكّكة، لكنّ إبراهيم سأل والده مسايرة: "كم تساوي ليرة الذهب الإنكليزيّة؟".

فقال جبرائيل إنّ سعرها متحرّك، لكنّها تفوق الليرة العثمانية قيمة، والطلب عليها كبير، وشدّد عليه أن يخفي الأمر خصوصاً عن شقيقه يونس لأنّه لا يركن إليه من فرط حاجته وشهوته للمال، فضحك إبراهيم وهو يتخيّل شقيقه يحفر في الطابق السفليّ والبيت يتهاوى على رؤوسهم.

وحدها راحيل صارت من وقت إلى آخر، عندما ترى في الصباح شقيقها يونس، وكانت تحبّه، خارجاً من غرفته بعد نوم ثقيل، تمسكه من كمّه وتدلّه مراراً إلى أرضيّة البيت فلا يفهم قصدها. يربّت لها على رأسها تحبّباً، وقبل أن يتّجه نحو الباب الخارجيّ ليستقلّ الشفروليه إلى بيروت ويعود مخموراً أحياناً في ساعة ليليّة متأخّرة، ترمي في أرجاء البيت صيحات يفهم منها فقط تكرار كلمة إنكليز، إنكليز في إشارة إلى ليرات الذهب، هي التي اعتادت إطلاق الصراخ من دون سبب ظاهر.

كان إبراهيم في مكان آخر غارقاً في قراءة كتاب فريديريك إنجلز **أصل العائلة والمُلكيّة الخاصّة والدولة**، فوضع ذهب جدّته فيلومينا في باب قصص والده ونسيها مع مرور الوقت. كان الأخير يكمل تهويماته حول "ذهب مع الريح" بأن أخرج من تحت فراشه مرّة ملصقاً للفيلم سرقه من لوحة الإعلانات في السينما في بيروت، وراح يؤكّد لإبراهيم أنّ والدته فيلومينا، وهو يشير إلى صورتها، تشبه بما لا يقبل الشك سكارليت أوهارا، وهو لا يكاد يحسن لفظ اسمها ولا يرى الفارق بين نظرات أمّه القاسية وعيون الممثّلة الهوليوديّة الحالمة.

نهض جبرائيل من كبوته الصحّية، وبقي السرّ معلّقاً بينه وبين ابنه البكر، ينظران إلى بعضهما بعضاً فيهزّ الأب رأسه ويبتسم الابن لا يدري ما يقول أو ما يفكّر. وتلقّى جبرائيل قبل وفاته زيارات عدة من ابن خالته الذي انخرط في سلك الأمن الداخليّ وهو يحمل وثائق وأوراقاً لم يطّلع أحد عليها. ويوم مرّت جنازة جبرائيل في شوارع البلدة، بعد شهرين، كان الصّغار يقفون على سطوح المنازل ليحظوا بنظرة شاملة على الموكب، فرأوه يبتسم في الصّورة التي رفعها رجل يتقدّم الجمع، فتذكّروا سروال البيجاما وزمجرة ابنته وطعم الجلّاب المثلّج.

5

طالب يونس من الفور بمال والده النقديّ، فأنكر شقيقه إبراهيم حيازة أيّ منه. راجعا المصرف فتذكّر المدير أنّ والدهما جبرائيل مبارك دخل إلى مكتبه قبل عام خائفاً يقول إنّ بنوك لبنان مهدّدة بالإفلاس، فأخبره أنّ زبائن يطرحون عليه هذا السؤال كلّ يوم منذ ثلاثين عاماً وهو في هذه المهنة ولم يحدث شيء من هذا القبيل، لكنّ جبرائيل أصرّ وأقفل حسابه. أحضرت الأمّ علبة أحذية ائتمنها عليها زوجها وجُمعت فيها سندات الدين التي لم تستحقّ، فدخل إبراهيم ويونس عالماً حاول والدهما دائماً إخفاءه عنهما. انتظرا أوّل استحقاق فلم يحضر سوى أستاذ في مدرسة البلدة يدفع ما عليه أوّل الشهر ويعود فيستدين في منتصفه، ورجل آخر قال إنّه صاحب محلّ درّاجات هوائيّة في ضاحية بيروت، طلب تأجيل السند. بدا يائس النظرات، فحنّ قلب إبراهيم عليه ووافق، لكنّ التاجر قبل الاستحقاق التالي حزم أمره. باع الدرّاجات بنصف ثمنها في يوم واحد وترك البلاد هرباً من المُرابين. تجاهل الباقون المواعيد عند علمهم بوفاة جبرائيل، فتقاسم الشقيقان السندات، لكنّ إبراهيم بعد محاولتين فاشلتين لتحصيل مال والده،

من موظّف في دائرة الأحوال الشخصيّة أقعده المرض لا يكفيه راتبه ثمن أدوية كما كانت تنوح زوجته، ومن أرملة تكثر من المساحيق وتواظب على ألعاب القمار بدلاً من تسديد دينها طالبت بالمزيد من المال وهي تصيح بنبرة هستيريّة: "ارفعوا عليّ دعوى، اسجنوني لعلّني أتربّى!"، جمع سنداته وأعطاها ليونس: "مبروك عليك، يا أخي، أعتقد أنّني لن أعرف كيف أحصّل ليرة واحدة من هذا كلّه!".

كان والد إبراهيم مقتّراً عليه لكنّه أرسله إلى الجامعة الأميركيّة، إلى فرع الزراعة الذي افتُتح حديثاً. تابع فيه دروساً حول التربة والنباتات، وخاض في مقاهي الشارع نقاشات حامية حول دور الإسلام ولغة الضادّ في تحديد العروبة. ولمّا اختار مقرّراً أدبيّاً لإكمال نصابه الدراسيّ، تعرّف في الاستراحة على فتاة خجولة وذكيّة. صارا يتنزّهان طويلاً في حديقة الجامعة، يجمعهما حبّ الشِعر العربيّ، ويحاول إبراهيم تهدئة مشاعرها المضطربة ويقدّم إليها صورة مطمئنة عمّا هو آتٍ عليهما، فتمسّكت به حتّى تزوّجا.

فاز يونس بالقليل من مستحقّات ديون والده وطحنه من الفور. بينه وبين المال عداوة راسخة، وزادت حاجاته بعد زواجه وانتقاله إلى بيروت هرباً من أهله. عجز عن أقساط المدارس الخاصّة، فنقل أولاده إلى

المدرسة الرسميّة، ولم يجد معه مالاً لإصلاح الشيفروليه القديمة التي عاند محرّكها في الدوران فتركها متوقّفة في الجوار ليفرغ هواء إطاراتها ويأكلها الغبار. شدّت به السبل فتذكّر حساباته القديمة. قصد دائرة السجلّ العقاريّ للاستحصال على سند ملكيّة في بيت أهله، وكرم المحموديّة، كمقدّمة لدعوى حصر إرث والده وعرض حصّته للبيع. صُعق لمّا اكتشف أنّ كامل الملكيّتين مسجّل باسم شقيقه إبراهيم مبارك وحده، 2400 سهم، لا أمّه ولا أخته ولا هو. طار إلى تلّ صفرا يرغي ويزبد، فأخبرته أمّه أنّ والده كان يخشى أن يبيع حصّته في الورثة يوم يحتاج إلى المال. وما لم تعرفه حتّى الأمّ أنّ جبرائيل سأل خبيراً أن يخمّن له البيت والكرم، وأعطى يونس في حياته مالاً يوازي حصّته في الميراث وهذا ما يفسّر إنفاقه المفاجئ عليه يوم اشترى الكورفيت ومبالغ أخرى لا يكاد يطلبها حتّى يعطيه إيّاها مضاعفة. لكنّ المال يفقد قيمته والعقارات تتحسّن، وما لا يُعوّض بمال الدنيا شعور يونس أنّهم أنكروه ونفوه مثل لقيط وجدوه ملقياً عند عتبة بابهم. هدّد إبراهيم وأمه بعقاب قاسٍ لم يفصح عنه، وهام غاضباً غير مصدّق لا يدري من أين يبدأ في استعادة حقّه.

طمأنه المحامي بداية إلى أنّ القانون اللبنانيّ يمنع الأب حرمان أبنائه ولا يسمح له بالتصرّف بأكثر من

نصف الميراث بموجب وصيّة، وفي حال أقدم على عمليّات بيع صُوَريّة لطرف ثالث يعيد بيعها لابنه المفضّل، يمكن بسهولة الطعن في هذا التهرّب من القانون وإبطاله. استخرج له المحامي بعد ذلك إفادة عقاريّة مدوّن عليها تاريخ الملكيّة، وعاد إلى يونس خائباً متفاجئاً بدوره يخبره أنّه وقع على حالة نادرة في باب انتقال الملكيّة يجب تدريسها في كلّية الحقوق!

عند شرائها قطعة الأرض التي شيّدت عليها البيت والكرم البالغة مساحته عشرين ألف متر مربّع، عمدت جدّته فيلومينا إلى تسجيلهما سرّاً في العشرينيات من القرن الماضي باسم شخص ليس ابنها بل يُدعى أسعد الصليبي أمّه كاترينا، ويمكن الاعتقاد أنّها فعلت ذلك لأنّها لا تريد أملاكاً باسمها بسبب تورّطها ربّما في نزاع قد ينتج عنه حجز أملاكها. فأخبر يونس المحامي أنّ الرجل المعنيّ هو ابن خالة والده، ولا بدّ أنّ جدّته أوصته بإرجاع الأملاك إلى والده جبرائيل الذي طلب منه عندذاك تسجيلها باسم ابنه إبراهيم. فلم يرد في الصحيفة العقاريّة سوى اسمين: أسعد الصليبي وإبراهيم مبارك. تُنهي هذه المؤامرة التاريخيّة المسألة، ولا يمكن في النتيجة اعتبار العقارين ميراثاً من جبرائيل مبارك ولا مجال للاعتراض أو الطعن، فالقاضي يحكم على الوثائق وليس المشاعر والرّوايات العائليّة.

عاد يونس إلى البلدة ومعه هذه المرّة شاحنة للنقل وعاملان للتحميل تبعاه داخل البيت. اتّجه أوّلاً إلى صورة فيلومينا فوقف على كرسيّ وأنزلها عن الجدار، أمسكها بيديه وبدأ يتوجّه إليها بالشتائم. يرمي عليها الأوزار، ويصفها بأنّها الشيطان في لباس امرأة، ويتّهمها بأنّها سافرت إلى أميركا لتمتهن الدعارة هناك وعادت لتزرع الفرقة في العائلة. تحمل **الإنجيل** مدّعية القداسة، لكنّ المال الذي جلبته معها وبنت به هذا البيت واشترت به الكرم مال حرام لم ولن يثمر على أحد ممّن تمتّعوا به. ثمّ رمى صورتها أرضاً فتحطّم زجاجها وإطارها. أنزل أيضاً ساعة الجدار وأخذها، وكذلك حمل الغراموفون الموضوع في زاوية الصّالون للزّينة، الأرجح أنّه سيبيعهما لأحد تجّار الأنتيكا، ثمّ بدأ تقاسم الكراسي والأرائك وأخذ كلّ ما احتوته غرفة نومه، حتّى أنّه أوقف شقيقته راحيل عنوة عن الصّوفا ليأخذها غير آبه بصراخها، وخرج محمّلاً.

"لديكم أقارب من جهة أمّكم فقط"، صار يردد من بعدها أمام أولاده، "لا أقارب لكم من جهة آل مبارك، لكم حقّ حُرمتم إياه".

ويتوجّه إلى الصبيّين بالقول: "إن كنتما رجالاً، تسترجعانه".

توفّيت أمّه ولم يظهر في الجنازة. دخل شقيقه إبراهيم سجن الرمل في العاصمة فلم يزره ولم يسأل حتّى عن ظروف اعتقاله. كان جرحه عميقاً ونهائيّاً.

رُزق يونس بثلاث بنات وولدَين انخرطا لاحقاً في حروب العاصمة فور اندلاعها بعد أن اختار والدهما مصادفة السكن في الحيّ الذي انطلقت منه شرارة النزاع الأهليّ المسلّح، وقيل أيضاً أنّهما شاركا في نهب مستودعات المرفأ والأسواق التجاريّة. كانت أمّهما فخورة بهما وتعرض على أقاربها صورهما وهما يصوّبان أسلحتهما في المتاريس. كانت كأنّها هي وسلفتها قادمتان من كوكبين مختلفين. هي اسمها سعيدة، صوتها عالٍ، جاءت إلى العاصمة من قرية جبليّة في أقصى الشمال، ابنة عائلة من المزارعين تنجب الأولاد وهي تسير، ترضعهم من صدرها طويلاً وتطلقهم، بينما تشعر الأخرى، أميلي، أنّه حدث لا مثيل له أن تُخرج طفلاً إلى الحياة ثمّ يكبر. أنجبت زكريا واعتقدت أنّها انتهت من هذه المحنة، لكنّ إبراهيم أقنعها ففعلتها مرّة ثانية، ثمّ صارت ترجوه أن يتوقّفا. قلبها ينفطر من مجرد النظر إلى صور ولديها عندما كانا صغيرين واقفين إلى جانب نبع ماء أو يوم أحد الشعانين بثياب بيضاء. كانت أميلي تمضي أوقاتاً طويلة وحيدة قرب نافذة غرفتهما، هي وإبراهيم، المطلّة على الوادي، تقرأ

وتكتب أحياناً في دفتر يوميّاتها، مرّة بالعربيّة ومرّة بالإنكليزيّة. لا تذهب إلى الكنيسة حتّى يوم الأحد، ولا شيء في سلوكها يدلّ على الايمان. تأخّرت كثيراً في عمادة زكريا ورغبتها التي لم تجرؤ الإفصاح عنها أن يختار دينه بنفسه يوم يصبح راشداً لم تصمد طويلاً أمام والدَي زوجها. جاءت أميلي من عائلة انتقلت مع وصول المبشّرين الأميركيّين من التقليد الأرثوذكسيّ إلى البروتستانتية الوافدة، فتوسّعت ثقافتها الدينيّة وفتر معتقدها. توزعت العائلة منذ قرنين من الزمن بين القدس ودمشق وبيروت، ولأميلي أقارب في المدن الثلاث، فاتّسع أفقها وكثرت أسئلتها حول معنى الحياة. وجدت في إبراهيم شابّاً ليّن العريكة، يصغي إلى محدّثه، وكان صوته خافتاً ودافئاً، فوافقت على اللحاق به إلى بلدته. أحبّته وأحبّها ولم يتشاجرا يوماً. تقاسمت مع حماتها العناية براحيل. كان لأميلي وجه مسعفة في "الصليب الأحمر" وحميميّة مضطربة معذّبة تفصح عنها لدفتر يوميّاتها فقط.

لحقت به إلى البيت محاولة التوفيق بين أهله، فشجّعت ابنها زكريا على زيارة بيت عمّه يونس من دون إبلاغهم مسبقاً. لم تتحسّن الأحوال، لكن شهدت حرب الإخوة هدنة بعد أن دخل يونس إلى بيته في بيروت في الأمسية وهو يصفّر ويروّح أمام وجهه

فيلومينا مرارة الهجرة، وجابت البحار بمفردها، فاخترعت هذه الكذبة ليتمسّك ابنها وسلالته بمسقط رأسهم، كي لا يتجرّؤوا على بيع البيت، فسّرت قول المسيح: "حيث تكون كنوزكم هناك تكون قلوبكم" على هواها، حرفيّاً. كانت أدهى من ذلك أيضاً عندما أضافت أنّ البحث عن الذهب في القبو السفليّ يعرّض البيت كلّه للوقوع. هكذا، يبقى الوهم وهماً لا ينكشف ولا يموت.

وأضافت أميلي في دفترها بعد انقطاع لأكثر من أسبوع:

بكيتُ دموع جسدي كلّها. تحقّق خوفي كاملاً، وأطبقت الدّنيا عليّ وعلى زكريا ومرتا. بعد أن أخبرنا بذهب جدّته، في اليوم التالي، سقطت علينا قذيفة إضافيّة أخيرة من موقع المدفعيّة نفسه الذي أرسل قبل أيّام القذائف على البلدة من "باب الخطأ" كما ادّعوا، قذيفة على الهدف نفسه كأنّها متأخّرة عن سابقاتها، زلزلت البيت بنا وقتلت إبراهيم من الفور. كان يسقي الورد عند درج المدخل.

جيل في جوار معبد عشتروت الرومانيّ، وهناك دائماً مَن يحاول الحفر ليلاً بحثاً عن خزنة أشمون عازار أو جواهر أليسار من دون العثور على ما يشفي الغليل. أخبر الحكاية كنادرة مسلّية مع فنجان القهوة العزيزة عليه بعد الغداء أمام زوجته وزكريا ومرتا وراحيل المريضة التي كانت تسمع عن هذه الثروة للمرّة الثانية.

كتبت أميلي تلك الأمسية في دفترها:

> تُحاك حول جدّة زوجي فيلومينا جميع خرافات آل مبارك. يقولون إنّها عرفَت ساعة موتها بالتحديد، وأخبرت ابنها قبل رحيلها بيوم واحد فقط عن وجود كنز مدفون تحت البيت، البيت الجميل الذي ورثناه عنها وأكتب بقرب إحدى نوافذه الآن. أمّا والد زوجي، جبرائيل، ولا أدري مَن قرّر اختيار أسماء العائلة جميعها من **الكتاب المقدّس**، فأخطأ قليلاً بموعد وفاته ونقل "سرّ" الذهب إلى ابنه البكر قبل شهرين من موته. أخبرنا إبراهيم اليوم، وهذا ما لا يطمئنني مع أنّ زوجي في صحّة جيّدة، الحكاية نفسها كي "يسلّينا" كما قال. تذكّرتُ قصّة قرأتها عن رجل ذهب يبحث عن كنز رآه في المنام فدار الدّنيا وعاد ليجده في جوار بيته. ذاقت

بشيك مصرفيّ كبير، عمولة مقابل دخوله وسيطاً في بيع بناية قديمة لمصلحة شركة عقاريّة ستُبنى فوقها ناطحة سحاب. وكأنّه لم يعتد راحة البال المادّية، لم يطل به المطاف، فتوفّي جرّاء خطأ جراحيّ زاد شعور عائلته بالاضطهاد.

هدأ النزاع مؤقّتاً حول البيت لتشتعل حرب أخرى أكثر فتكاً مع وصول دبّابات الجيش الإسرائيليّ إلى جوار تلّ صفرا التي كانت قد تفادت الاشتباكات بفضل تفاهم أهلها، فسقط منها أربعة قتلى وبضعة جرحى في قصف مفاجئ لم يكن أحد يتوقّعه وقيل أنّه حدث نتيجة خطأ في الإحداثيّات المدفعيّة. وكان لهذه المجزرة المجّانية إيجابيّة وحيدة هي أنّ القذائف العشوائيّة أوقعت قتيلين لدى الدروز واثنين لدى المسيحيّين، ما منع أيّ احتكاك بين الطرفين، بل شهدت البلدة تبادلاً للعزاء ومشاركة في التأبين. شردت إحدى القذائف باتّجاه بيت مبارك فأحرقت شجرة جوز وفتحت فجوة في قرميد السطح. تكسّر زجاج النوافذ، ووقعت صورة فيلومينا أرضاً مرّة جديدة، فأصلحها إبراهيم قبل ترميم السقف، وأعاد تعليقها، فتذكّر ما أخبره به والده يوم التقطوا له صورته التذكاريّة.

كان قد نسي لأنّه وضع سرّ جدّته ضمن الكنوز المطمورة التي شاع وجودها في البلدة من جيل إلى

6

شاع خبر مقتل زكريا مبارك في البلدة، وشاع معه فوراً وهمساً اسمَا أبناء عمّه. فللضحيّة في هذه الأنحاء دائماً غريم أظهر لها العداء، غريم معروف ودوافعه معلنة. فيُحكى عن رجل أطلق النار على خصمه في ثلاثينيات القرن الماضي وسلّم نفسه للسلطات، لكنّ الضابط الفرنسيّ أصرّ على إفادات نساء الحيّ الشاهدات على الحادثة لتثبيت محاولة القتل. اقتادهنّ إلى السجن حيث تمنّعنَ عن البوح باسم قريبهنّ الفاعل الذي طلب بدوره مقابلة النساء وحثّهن على الاعتراف والانصراف إلى بيوتهنّ وأولادهنّ: "أتريدنّ، يا عاهرات، أن يطلق رجل غيري النار عليه؟".

وصبيحة اليوم الذي تلى اكتشاف جثّة زكريا، وقبل ورود أيّ أخبار دقيقة من المخفر أو المستشفى، لهج لاعبو الطرنيب في المقهى باسم "الصغير" من أبناء يونس مبارك، المدعوّ جبران لِما عُرف عنه من قساوة ورثها عن أهل أمّه. كأنّهم هكذا ختموا القضيّة واستراحوا منها لينصرفوا إلى يوميّاتهم. وكالعادة، عندما يكون المتوفّي شابّاً أو قتيلاً، شارك بالعزاء وبوجوه متجهمة رئيس وأعضاء المجلس البلديّ،

يونس الخبر كمَن يُرمى لهم ملحٌ على الجرح. بادروا إلى إرسال مكتوب بالبريد يطالبون فيه بحصّتهم بالبيت والكرم لأنّ فيلومينا هي جدّتهم ولا أحد يمكنه حرمانهم ميراثها. ردّت مرتا عليهم كتابةً أنّ "والدكم أكل حصّته في حياته"، وأنّها في كلّ حال لا تملك شيئاً من هذا كلّه، لا هي ولا أمّها. زكريا مسافر لا تعرف في أيّ بلاد يحطّ رحاله. ثابروا لسنوات طويلة وبصورة متقطّعة على المطالبة والتهديد وتحميل ابن عمّهم المسؤوليّة وأنّهم ليسوا مقطوعين من شجرة، وفي الصّيف الذي عاد فيه زكريا، اتّصلوا به مراراً على هاتفه المحمول، ولمّا قرّر الإجابة في إحدى المرّات، سمع ابن عمّه يطالبه بالذهب المطمور تحت البيت فنصحه زكريا أنّ عليهم أن "يكبّروا عقلهم" وأنّ ذلك كلّه مجرّد خرافة. ردّ محدّثه من الفور أنّه يكذب لإبعادهم عن الثروة فنظر زكريا نحو صورة جدّته نظرة عتب لأنّها روّجت لهذه الحكاية، وأحسّ أنّها تبادله بنظرة صارمة تلومه فيها لأنّه هذه المرّة فضح سرّها الحقيقيّ...

مع وفاة والده وتحوّل العاصمة مسرحاً دامياً حتى في عمليّات متقطّعة، قرّر زكريا السفر ولم يبقَ في جعبة أمّه حجّة لتقنعه بالبقاء. أخبرته أنّها وشقيقها تقاسما ورثة العائلة بالتراضي وقرّرت إعطاء ابنها الجزء الأكبر من مالها النقديّ بالدولار، فترك وراءه في البيت أمّه وأخته وعمّته التي اتّهمتها مرتا أنّها هي التي أخبرت أبناء يونس، مَن تسمّيهم اليتامى، بوجود الذهب. فاجأتها مرّة تمسك الهاتف وتكرّر عباراتها المعتادة بصوت عالٍ: "دهب إنكليز، دهب إنكليز". لكنّ أميلي قالت إنّ راحيل تقلّد أهل البيت كيف يتكلّمون في السمّاعة ولا تعرف كيف تستخدم الهاتف.

الحقيقة أنّ مرتا هي التي أخرجت الخبر إلى العلن وليست عمّتها. فبعد فراغ البيت من الرجال، لم تحتمل فكرة البقاء مكتوفة الأيدي، فجاءت ببدويّ من سهل البقاع خبير بالتنقيب عن الآبار والكنوز جزم لها بوجود ماء أو "معدن" تحت البيت. دلّها كيف "ينتع" قضيب الرمّان إلى جوار العمود الثاني الحامل للأقبية، وقال لها إنّه مستعدّ للحفر هنا والحصول على ربع ما يجده، فأرجأت قرارها أيضاً.

بعد مرور البدويّ في بيت آل مبارك، انتشر خبر وجود خمسين كيلوغراماً من الذهب تحت قبو البيت. لم يُعرف من أين خرج العدد خمسون، فتلقّى أبناء

كرّر أولاد يونس مبارك في المخفر وقائع خلافهم مع بيت عمهم حول ملكيّة الكرم والبيت جازمين أنّ أيّاً منهما لم يدس أرض البلدة منذ سنوات بسبب هذا الجفاء، لكنّهما لا ينكران قرابة الدم ولا يكابران أمام الموت. خشي الرقيب أن تتعقّد المسألة إن أثبتا براءتهما، فهو أيضاً نام ليلة أمس على جريمة معلومة الفاعل، فادّعى أنّ شخصاً رآهما يغادران نزولاً بسيّارة مسرعة عند غروب أوّل من أمس. سخرا من التّهمة وأنكرا بشدّة، وصدّقهما الملازم الذي رمق الرقيب بنظرة ملامة وأبلغهما استدعاءً رسميّاً إلى سرايا بعبدا. هناك، أورد الرجلان أمام كمال أبو خالد، قاضي التحقيق المساعد في جبل لبنان، أسماء معارف لهما يمكنهم أن يؤكّدوا وجودهما في بيروت عند وقوع الجريمة، أحدهما، جبران، في مقهى لجهة البحر يدخّن النرجيلة مع أصدقاء، والآخر، البكر، في كنيسة القدّيسة ريتا يحضر زيّاح الأحد. أنكرا إقدامهما على قتل زكريا، وأبرزا مجدّداً حرمانهما ميراث آل مبارك، فنصحهما المحقّق الشابّ بالتقدّم بدعوى قضائيّة لتحصيل حقوقهم فلم يخبراه أنّهما حاولا من دون نتيجة.

تركهما أحراراً لانتفاء الدليل مع إبلاغهما أنّه قد يُصار إلى طلب إفادة إضافيّة منهما مع تطوّر التحقيق. انهار اليقين في مسؤوليّة الأقارب، فذهبت التكهّنات في كلّ

يمكن أن تحدث لهم لأنّهم، كلّ من جهته، نجحوا في تقاسم ميراث أهلهم مع إخوتهم وأخواتهم من دون حرمان ولا زعل.

جاءتهم المفاجأة في اليوم التالي. عند الحادية عشرة ظهراً دخل السكرستانيّ إلى قاعة الرعيّة يتلفّت إلى الوراء وفي وجهه خبر لم يتمكّن من إبلاغه، إذ ظهر في الباب فجأة ابنَا يونس مبارك. يعقدان ربطات عنق سوداء، يتقدّم الصّغير أوّلاً بمشية ثابتة وملامح قاسية، يتبعه شقيقه البكر المتردّد وعلى وجهه ابتسامة صغيرة دائمة. عانقا مرتا التي ارتبكت ليزداد لونها شحوباً وتجمد عيناها غضباً.

جلسا واعتذرا بصوت خفيض لغيابهما عن الجنازة، فالخبر لم يصلهما إلّا قبل ساعات وعن طريق المصادفة. لم تجد مرتا ما تردّ به. همَت مراراً بالانسحاب إلى البيت لكنّها بقيت وبقي الجميع جالسين في صمت مشدود أمام فضوليّين من أهل البلدة عادوا إلى القاعة ليضعوا عيونهم في عيون مَن تداولوا في أمرهم طوال اليوم السابق. لا يريدون أن تفوتهم وقائع مثيرة لم يتأخّر حدوثها. عند خروج الأخوين، من دون أن يرافقهما أحد، كان الملازم الشابّ الذي استُدعي مع رهط من العساكر على وجه السرعة إلى تلّ صفرا بعد اكتشاف الجريمة ينتظرهما مع الرقيب عند المدخل.

وراهبات مدرسة القلبين الأقدسين اللواتي كنّ يتبادلن عبارات الأسف بالفرنسيّة، ورجال دين دروز بشراويلهم السوداء وعماماتهم البيضاء وأحاديثهم الهامسة حول خطأ الأهل الذين لا يعدلون بين الأبناء. حتّى كاهن الرعيّة أخذته الحميّة فأنّب في عظة الجنازة الأقارب الذين يحتكمون إلى السلاح لفضّ نزاعاتهم الماديّة، مُنهياً بتعداد خصائل زكريا الذي التقاه مرّة واحدة ووجده خلوقاً ومؤمناً، ودعا لتغمر الرّحمة قلوب الناس أجمعين.

في هذه الأثناء، تلقّى مكتب المدّعي العامّ في بيروت، إضافة إلى التقرير الأوّليّ وتقرير الطبيب الشرعيّ، اتّصالاً هاتفيّاً قرابة الظهر من الرقيب في مخفر البلدة يبلغ فيه أيضاً أنّ شقيقة القتيل تطلق التّهم بالصّوت العالي بحقّ أبناء عمّها المقيمين في بيروت. كان الرقيب قلقاً ومستعجلاً لطيّ الصفحة بعد أن أرسل إلى المدّعي العامّ كلّ ما وجده مع القتيل باستثناء الغلوك 17 وبات في النتيجة موضع شبهة ومعاقبة حتّى لو تراجع وقرّر التبليغ عن المسدّس في وقت لاحق. بدأ رجال التحرّي البحث عن عناوين أبناء يونس مبارك في حيّ عين الرمّانة تمهيداً لاستدعائهم كشهود في القضيّة. نام الأهالي في البلدة فوق على شعور مطمئن بأنّ الجريمة اقترب حلّها، وهي على فظاعتها لا

اتجاه هذه المرّة، لكن ظلّ البعض متمسّكاً بفرضية أبناء العم مُعتقداً أنّه رأى بعينيه، لو لمرّة في حياته، كيف أنّ أناساً يقتلون القتيل ويمشون في جنازته.

أخرجت مرتا المفجوعة أمام المحقّق رسالتَي تهديد من أبناء عمّها يونس، قرأهما بسرعة بعد أن اكتشف من ختم البريد أنّهما تعودان إلى عشر سنوات خلت. طالب بالمزيد فأخبرته عن المكالمات الهاتفيّة وعن الرسائل النصّية في السنوات الأخيرة، تمحوها في كلّ مرة لأنّها كانت تغضب وتتوتّر عند تلقّيها ولمّا تقرؤها، تشعر كأنّ الكهرباء لسعتها.

سألها عن شقيقها فدمعت عيناها. أخرجت كتلة من المحارم الورقيّة من حقيبة يدها وبدأت تروي من دون ترتيب سيرة رجل مثقّف رقيق لا يمكنه إيذاء أحد، يحبّ الشجر ويداويه، خبير مثل والده بأنواع العنب والنبيذ. سافر وشبع من النساء ومن السفر. ستعيش وحدها في البيت الآن، هي وعمّتها راحيل. تعتقد أنها ستفقد رشدها مثلها في القريب. لم يغمض لها جفن في الليلتين التاليتين لموته. وجدته حزيناً في الأيّام الأخيرة، تسمعه من المطبخ يتنهّد عالياً وهو ممدّد في الصالون ينظر إلى زخرفات الجصّ الملوّنة في سقف البيت، وأحياناً يبتسم عندما ينظر إلى صورة جدّته فيلومينا. استقرّ في غرفة والديه، يقفلها بالمفتاح عند

مغادرته المنزل ويكون حاضراً في كلّ مرة تدخل لترتيبها. شاهدته مرّة يحمل قارورة من زجاج وقبّلها وهو يغمض عينيه. لا يمكنها دخول الغرفة اليوم لأنّ المفتاح كان في جيبه وأخذه رجال الدرك، فنبّهها القاضي أن تحذر الدخول عنوة. أكملت أنّها عندما أخبرت زكريا ما قالت لها أمّها قبل وفاتها إنّ أفضل أمر يحدث لها أنّها ستموت قبل ولديها، أقفل على نفسه في الغرفة حتّى اضطرّت إلى تهديده بالاستغاثة بالجيران قبل أن يخرج. لا تعتقد أنّ هناك مَن يريد به شرّاً غير أبناء عمّه، لكنّه كان كبير النفس. سمعته مرّة يقول إنّه يريد بيع الكرم ويفكّر في إعطاء نصف الثمن إلى أبناء يونس. أراد الخلاص من أصحاب الأرض المحيطة بالكرم، مُتعِبون سيتسبّبون له في المشكلات. لم ينسوا حادثة والده، وتعود لتبكي على نفسها فزكريا صار في أيّ النهاية أباها وأمّها...

لم يقاطعها المحقّق. استسلم لقصّة زكريا، لكن مرتا آلة لا تتوقّف ولا تفيد لأنّها تعدو في كلّ اتجاه. تعبت في النهاية فرافقها إلى الباب، ثمّ عاد ليتّصل بمخفر البلدة. حذّر الرقيب من مغبّة الارتجال مُذكّراً إيّاه أنّ تقريره لا يوثّق الساعة والدقيقة، كما لم يعثر على الخرطوشة التي لا بدّ سقطت من المسدّس أو البندقيّة. طلب منه العودة إلى مسرح الجريمة ليبحث عنها، كما

أنّه لم يُصَر إلى طلب حضور الأدلّة الجنائيّة لرفع البصمات، وحذّره ألا يستبق التحقيق ويؤثّر فيه بالادّعاءات وتوجيه التّهم. أقفل الرقيب هاتف المخفر وأطلق شتيمتين غليظتين.

قرأ كمال أبو خالد تقرير الطبيب الشرعيّ فوجده جافّاً. أهمله وأرسل الرصاصة المرفقة به إلى مختبر المقذوفات، ثمّ حمل مقتنيات زكريا التي وُجدت معه عند مقتله إلى بيته بعد استئذان قاضي التحقيق الأوّل. يريد العمل ليلاً.

لم يكن كمال أمام "جريمته" الأولى، وهو اختار الصّرامة في تجربته مع الإدارة اللبنانيّة. يزجر المُهمِلين المتأخّرين عن المواعيد، يصحّح أخطاء اللغة العربيّة في التقارير، يرفض الوساطات بحدّة ويرى نفسه خادماً للقانون والدولة مقتنعاً بألّا شيء يمكنه أن يحول بينه وبين اكتشاف الحقيقة. تابع دراسة الحقوق في جامعة باريس الأولى، وأعدّ أطروحة حول جنايات الأحداث ليحتلّ عند عودته إلى بيروت المرتبة الثانية في امتحان سلك القضاة، وبقي عازباً لا يرسو على حبّ. يعيش بالانتظار وحده مع بولدوغ فرنسيّ وجهه مخيف لكن وديع، يُخرجه كلّ يوم في نزهة قصيرة على كورنيش البحر في بيروت يلفت فيها انتباه المارّة ويبتعد عنه الصغار. ويقول بعض معارفه مُمازحين إنّ

أحوالها: تهريب مخدّرات، محاولات سطو، خطف يكون المال محرّكه، وأحياناً جرائم شرف كقتل الزوجة المتلبّسة بالخيانة أو الانتحار في حالات انفصام الشخصيّة المتزايدة في السنوات الأخيرة. بدت أمور زكريا مبارك أكثر تعقيداً، وكان القاضي سعيداً بالتحدّي. يعود إلى صور هاتف الضحيّة وينظر إليه واقفاً في باب مطعم "الفيل الأبيض" فيطمئنه: "لا عليك، لن يفلتوا بفعلتهم!".

في عودته إلى الرسائل النصّية، وجد ما يمكن توقّعه: اعتذار باللغة الفرنسيّة للتأخير عن لقاء وأطيب الأمنيات بالوصول سالماً، تعزية بالإنكليزية بوفاة والدته أميلي: "أعرف كم أنت متعلّق بها وكم يصعب عليك فقدها وأنت بعيد كلّ هذا البعد. لا يمكنك ترك ماري وحدها. محبّتي، أنت شجاع". ماري ابنته على الأرجح. ثمّ وجد استفهامات جافّة من نوع: "تركتَ هنا الكثير من الثياب التي تعود إليك، ماذا تريدني أن أفعل بها؟"، أو حسرة، نسائيّة: "أحدثتَ في قلبي فجوة يصعب ردمها".

كان عدد الرسائل كبيراً ولم يكن كمال مستعدّاً لتسليمها لأيّ من مساعديه؛ لا يثق بذكائهم ودقّتهم. انكبّ عليها بالتسلسل حتّى وصل إلى واحدة تقول: "تعقيباً على اتّفاقنا في مدينة الأنوار، علمتُ أنّ هناك

وجد نفسه يمعن في التلصّص على هذا الرجل المحاط بالنساء، على نتف حياته.

انتهى من الصّور، وقبل أن يُفرغ كلّ ما في الهاتف انتقل إلى الأوراق التي وُجدت في جيب سترة زكريا: شهادة من مارك شاغال تحمل ختم محترف الفنّان وموقّعة منه باسمه كاملاً وواضحاً، اسم مكتوب بتأنٍّ أكثر منه توقيع. التاريخ 1981/7/5. وثيقة يصرّح فيها الفنّان أنّ لوحة "عازف الكمان الأزرق" مرسومة بالزّيت على قماش من كتّان بقياس 40X70 سم. قائمة مطبوعة بأنواع غرسات العنب في مناطق فرنسا وأنواع التربة المناسبة لعنب الميرلو والريسلنغ أو الشاردونيه. رسالة بالإنكليزيّة موقّعة من ماري تخبر والدها ما فعلته طوال يوم من حياتها الصغيرة. جلست في الصفّ الأخير من أوتوبيس المدرسة حيث تحبّ أن تجلس كلّ يوم لتطيل له التلويح بيديها حتّى تدخل الحافلة في المنعطف فيغيب عنها. تحبّ كارول أكثر من جميع رفاقها وتحبّه هو قبل الجميع. ستلعب دور طائر بجناحين في مسرحيّة المدرسة يوم انتهاء الدروس وبداية العطلة الصيفيّة.

مَن حقّق كمال أبو خالد في مقتلهم خلال السنوات الثلاث السابقة التي شغل فيها منصبه كانت حيواتهم سهلة مكشوفة لم تتطلّب منه الكثير. لا غموض يشوب

عدوى العبوس انتقلت إليه من طول معشره مع البولدوغ. يعوّل كثيراً على التقارير البالستيّة ونتائج الحمض النوويّ وفئات الدم، وتفضح مكتبته اهتمامه بالأدب الروسي والرسم المعاصر ومؤلّفات جايمس ايلروي والقدّيس بولس والمعتزلة. يتّهمه منافسوه على منصب قاضي التحقيق بأنه مدّعٍ رغم ثقافته ويريد إثبات نفسه بأيّ ثمن، والقريبون منه يقولون إنّه يخفي وراء حزمه شفقة كبيرة على الضّعفاء فيخفّف قدر الإمكان اتّصاله الشخصيّ بالمتّهمين والضّحايا.

اشتمّ في زكريا مبارك رائحة أُنس، وبدأ البحث داخل هاتفه المحمول. يداعب رأس البولدوغ الممدّد إلى جانبه بيد ويفتّش باليد الأخرى عن صورة له ليضع له وجهاً في ذهنه. وجده في حديقة عامّة واقفاً وخلفه تمثال من حجر للإله أيروس يطلق سهمه نحو السماء؛ إنّها باريس على الأرجح. عثر عليه برفقة سيّدة في مقهى فلوريان، سائحَين ينظران في اتجاهين متباعدين في ساحة القدّيس مرقص في البندقيّة. توقّف عند صورة يرفع فيها طفلة يلتهمها بناظريه تحت شجرة لوز مزهرة بيضاء، أينما كان؛ إنّه الربيع؛ إنّها الفتاة التي خاط صورتها على قميصه الداخليّ والتي سلّمته إيّاها شقيقته مرتا ملوّثة بالدم وقالت إنّها لا تعرف مَن هي.

7

صعد زكريا مبارك سلّم الطائرة يوم مرور مذنّب هالي. في البيت، صباح رحيله، جلست عمّته راحيل على إحدى حقائبه وهي تهذي بكلماتها التقريبيّة وباسميّ والدتها وجدّتها فيلومينا في محاولة يائسة منها لمنعه من المغادرة. رافقته أميلي إلى الباب الخارجيّ، أمسكته من كتفيه لتطبع وجهه في ذاكرتها، أغمضت عينيها وعانقته طويلاً ثمّ استدارت وعادت إلى غرفتها. عند هبوط المساء، ساعة يحضرها الكلام لتقاوم السويداء بالكتابة، اكتشفت أنّ زكريا سلب دفتر يوميّاتها فرفعت كتفيها وابتسمت بحنان. رأت وجهه من جديد وعلمت في قرارة نفسها أنّها لن تراه بعد هذا اليوم.

كان البكاء لا يزال شائعاً في مطار بيروت فبكت شقيقته مرتا في وداعه. حجّاج مسلمون تأجّلت رحلتهم إلى السعودية كانوا ينظرون إليها كيف تشهق جالسة على أحد مقاعد الانتظار ثمّ تُخرج منديلاً مطرّزاً تتمخّط فيه عالياً. عندما نادوا على طائرته، ضمّها زكريا إليه ثمّ تنحّى بها جانباً وهمس في أذنها كلاماً جعلها تطلق صرخة عالية كأنّ وجيباً أصابها في القلب. في طريق العودة الملتوّي صعوداً إلى البلدة، سمعها السائق

للرهان المادّي الكبير وراء ما اكتشفه بعد أن بحث عن الأسعار الخياليّة للوحات شاغال، التي يبدو أنّها طالما فاجأت الرسّام نفسه في حياته، وخوفه من العبث بالأدلّة الشائع في صفوف الضابطة العدليّة، جعلاه يفضّل إكمال التحقيق وحده. قاد سيّارته صباح اليوم التالي. فتحت له مرتا الباب. ظهرت عليه صورة المرأة وفي يدها الكتاب في صدر الدار. سألها مَن تكون فأجابت بتنهّد كئيب: "جدّتي فيلومينا...".

وأشارت إلى المرأة العجوز الممدّدة فوق الأريكة: "... وهذه عمّتي راحيل، منذ سافر شقيقي وهي تطالب به والآن ربّما لم تعرف أنّه مات".

متى سافر شقيقك؟

بعد انسحاب الجيش الإسرائيليّ من بيروت وفور إعادة فتح المطار.

في السوق العديد من الموسيقيّين وبأثواب مختلفة منسوبة إلى المؤلّف نفسه". توقّف عند هذه الجملة المُصاغة لإثارة الالتباس؛ إنّها من نوع الكلام الذي يخفي كلاماً آخر. قرأ أيضاً الرسالة التالية الصّادرة عن رقم الهاتف الخارجيّ نفسه للرسالة التي تتحدّث عن الموسيقيّين: "سيزورك صديقنا قريباً في بلدتك لتسليمك الهدية وللبتّ نهائياً في شأن عازف الكمان، اسهز عليه جيّداً".

رسم كمال أبو خالد الصّورة بسرعة. عاد زكريا مبارك من هجرته وفي حوزته لوحة شاغال الثمينة المعروضة للبيع. يمنع حتّى شقيقته من الدخول إلى غرفته لأنّه خبّأ اللوحة داخلها. وبالقياسات المذكورة في شهادة الرسّام، لا بدّ أن يكون ثمنها باهظاً إن كانت أصليّة كما يبدو وقد يسقط أكثر من قتيل في صفقة من هذا النوع...

ازدادت حماسته وبدأ يقتنع أنه وجد ما يشبه الدافع للجريمة، فقرأ جميع الرسائل من دون أن يضيف عناصر إلى هذه المعطيات. في اليوم التالي، وضع مفتاح غرفة زكريا في جيبه وتوجّه إلى البلدة من غير أن يتّصل بمرتا ليُعلمها بقدومه. يخلّ بآليّة العمل المتعارف عليها، إذ يفترض به تسليم هذه الموادّ للشرطة القضائيّة لتكمل تحقيقاتها وترفع إليه تقريراً بالنتائج. لكنّ تقديره

[illegible] نفس اللبس، الأصليّة أو التقليد، بشريطها الأحمر صيفاً.

أقلع عن تأمّل تماثيل الفلاسفة والأدباء القائمة في الحدائق والسّاحات وعن قراءة عناوين الجرائد الصباحيّة، وبات مع الوقت يسير قدماً مثل سكّان المدينة لا يلتفت كأنّه يسرع الخطى إلى مقصده وهو لا يعرف إلى أين يتّجه. كما تمرّن على استراق النظر من دون أن يدير رأسه عند ازدحام الأرصفة بالنساء الجميلات. يتوقّف فقط ليتابع عازف الأكورديون البدين ذا الوجه الكئيب والنوتات الراقصة. يرمي إليه قطعة نقديّة في قبّعته، وينتقل إلى المقهى القريب فيستحضر بيت أهله على السفح الذي تغمره الشمس. راحيل تمسك رأسها بيديها وتتعثّر بكلماتها، أميلي تدشّن دفتراً جديداً تعصر فيه قلبها وتقاوم نوبات السعال التي تتسلّط عليها وترفض مراجعة الطبيب بشأنها، ومرتا الصّعبة الأذواق في الرجال تخطّط بدقّة وتحفّظ لاحتمالات زواجها. حتّى بعد إبلاغه بوفاة والدته، بقي يتخيّلهنّ ثلاثة هناك، ثلاث نساء هو رجلهنّ الأخير.

تأخذه المدينة من جديد. يطلب في حانة معتمة "قهوة أيرلنديّة" لا يعرف طعمها ويحلو له اسمها. يقرأ في قطار الأنفاق جالساً قرب امرأة توبّخ نفسها عالياً بالإسبانيّة. يقلّب صفحات **ملوك العرب**، واحد من

الذي أوصلها تحدّث نفسها: "سيعود، سيعود، سرقتُ ساعته وخبّأتُها...".

جلس زكريا في الطائرة إلى جانب رجل فرنسيّ ضاحك العينين أحمر الوجنتين يفوح النبيذ من لهاثه. باح له فوق مدينة غالاتاساراي التركيّة أنّه ثنائيّ الميول الجنسيّة، "يخرج" مع شاب أو مع فتاة على حدّ سواء، ففرّ منه إلى المرحاض، ولمّا عاد، وجده يشخر وقد غطّى وجهه بصحيفة "ليكيب" الرياضيّة.

حمل مال أمّه نقداً. دسّ القسم الأكبر منه بناء على نصيحتها داخل بطّانة سترته ونزل من الطائرة وسيماً مندفعاً. أحبّ لفحة البرد في باريس فاشترى شالاً جزم له صاحب كشك الرصيف أنّه من الكشمير الخالص. ربطه بعناية حول عنقه بعد أن راقب كيف يعقد المارّة شالاتهم. تفحّص ألوان سترات الرجال وقَصّة سراويلهم، وبعد أسبوعين على إقامته بالقرب من ساحة الباستيل صار زكريا مبارك، تساعده في ذلك بشرته الرقيقة البيضاء وعيناه الحائرتان بين الأزرق والأخضر، يشبه مدرّساً فرنسيّاً لمادّة التاريخ يناصر الحزب الاشتراكيّ ويلتزم قضايا البيئة. بقي عليه صلع آل مبارك الوراثيّ المبكر فأخفاه بالكاسكيت العمّالية لأيّام معدودة قبل أن ينتقل نهائيّاً، حتّى مقتله، إلى القبّعة الأميركية السوداء

7

صعد زكريا مبارك سلّم الطائرة يوم مرور مذنّب هالي. في البيت، صباح رحيله، جلست عمّته راحيل على إحدى حقائبه وهي تهذي بكلماتها التقريبيّة وباسميّ والدتها وجدّتها فيلومينا في محاولة يائسة منها لمنعه من المغادرة. رافقته أميلي إلى الباب الخارجيّ، أمسكته من كتفيه لتطبع وجهه في ذاكرتها، أغمضت عينيها وعانقته طويلاً ثمّ استدارت وعادت إلى غرفتها. عند هبوط المساء، ساعة يحضرها الكلام لتقاوم السويداء بالكتابة، اكتشفت أنّ زكريا سلب دفتر يوميّاتها فرفعت كتفيها وابتسمت بحنان. رأت وجهه من جديد وعلمت في قرارة نفسها أنّها لن تراه بعد هذا اليوم.

كان البكاء لا يزال شائعاً في مطار بيروت فبكت شقيقته مرتا في وداعه. حجّاج مسلمون تأجّلت رحلتهم إلى السعودية كانوا ينظرون إليها كيف تشهق جالسة على أحد مقاعد الانتظار ثمّ تُخرج منديلاً مطرّزاً تتمخّط فيه عالياً. عندما نادوا على طائرته، ضمّها زكريا إليه ثمّ تنحّى بها جانباً وهمس في أذنها كلاماً جعلها تطلق صرخة عالية كأنّ وجيباً أصابها في القلب. في طريق العودة الملتوّي صعوداً إلى البلدة، سمعها السائق

لكنّ ذلك لم يحدث، فبقي احتمال تبادل المشاعر مؤجّلاً بينهما. خرجا من المعرض، ترافقا على الرصيف لأمتار قليلة، سلّما باليد طويلاً وبحرارة، أعطته بطاقتها وأضافت: "إذا حدث ومررت هناك، فربّما أحتاج إلى رجل يساعدني في إدارة الفندق".

ماتيلد لاغرانج

فندق دوّار الشمس،

ساحة فريديريك ميسترال،

سان بول دو فانس.

كان محاطاً بالنساء في بيته وفي كلّية إدارة الأعمال في بيروت. رفيقات الدروس يأتمنونه على أسرارهنّ. يصلح ما بينهنّ وبين أصدقائهنّ من الشبّان. يقرضنه المال إذا نضب في جيبه. يجلسن في حضنه. لا تعرف الغيرة طريقاً إلى قلبه إذ كان بليد المشاعر تجاه هؤلاء العذارى الرقيقات القلوب، بينما تغريه امرأة ناضجة مثل ماتيلد بجمالها وطلاقها وأمومتها وتقدّمها عليه بالسنّ، فوجد نفسه يدسّ بطاقتها بين صفحات جواز سفره ليتأكّد من أنّها لن تضيع.

تاه من دون رغبات واضحة، ثمّ عمل مديراً في مطعم "لو سيدر دو ليبان"، أرزة لبنان. قابل صاحبه الذي يشعل ويطفئ السجائر الأميركيّة من دون توقّف فأخضعه لاستجواب لم يسأله فيه عن خبرته في

عنه، زكريا، أنّه لا يعرف هوبَر بل سمع به من صديق رسَام في بيروت يقلّد لوحاته سرّاً لكنّه يلاحظ الآن أنّ شخصيّات صديقه أكثر فرحاً.

عنها، أنّها ستغادر آخر النهار في قطار ليليّ إلى الجنوب، تحبّ قطارات الليل التي تطلق صفّارتها وهي تجتاز مدناً صغيرة نائمة.

عنه، أنّه سيلتحق قريباً بدورة في زراعة العنب وصناعة النبيذ لأنّ نوح، الكرّام الأوّل، عاش في بلدته أو على مسافة قريبة منها، وأنّ له هناك كرماً تضربه الشمس وينتظر عودته.

عنها، أنّها صاحبة فندق في مدينة صغيرة، هناك "مقابل بلادك".

عنه، أنّ أمّه لا تريده أن يتزوّج، تخاف من الأطفال، من حياتهم ومن موتهم.

عنها، أنّها مطلّقة حديثاً ولها ابن يدعى جان باتيست، لفظت الاسم ثمّ انتبهت إلى المصادفة، فحدّقا ببعضهما بعضاً صامتين مدهوشين: زكريا ويوحنا المعمدان!

انفجرا ضاحكَين وكادا يتعانقان.

وعنه، أنّه لا يشتهي نساء بلده، يشعرنه بسفاح القربى.

يختار كلّ منهما من حياته وأذواقه تفاصيل لإغراء الآخر وإشعاره أنّ بإمكانه التوغّل أكثر من دون عواقب.

عشرة كتب اختارتها له أمّه بعناية ووضعتها في حقائبه كي لا ينسى لغة أهله. يقرأ حتّى في خط الانتظار، في حديقة الغران باليه حيث يُقام معرض استعاديّ لإدوارد هوبّر، وهناك، في التقدّم خطوة خطوة، أحسّ أنّ المرأة التي تسير خلفه تختلس النظر من فوق كتفه. التفت وابتسم لها فابتسمت وسألته هل يقرأ العبريّة. قال إنّ اسمه زكريا لكنّه لا يعرف العبريّة. أغلق كتاب أمين الريحاني وفتح مع المرأة التي تساويه طولاً محادثة متقطّعة حول الطقس الجميل المساعد على الانتظار أو إضراب سائقي الأوتوبيسات الذي يجعل الحياة صعبة في المدينة. بعد قليل، استدار بجسمه ليصبح معها وجهاً لوجه، هي تتقدّم وهو يسير متراجعاً فضحكا والضّحك يفتح القلب على المزيد. جمالها مكتمل، في ذروته، اقتربت من لحظة اتّزان بين سنوات الشباب الهشّة والمتردّدة وبين تقدّم في السنّ لن تتأخّر معه بداية الكساد، كفاكهة نضجت فلا تُترك لأيّام إضافيّة خشية الذبول. تمسكه من يديه، توجّهه كي لا يصطدم بالواقف خلفه أو كي يسرع الخطى. تلامسا وتعارفا وحوّلا ضجر الانتظار في الصفّ الطويل إلى متعة لم يريدا لها أن تنتهي.

داخل قاعات المعرض، لم يتحدّثا عن لوحات رسّام الوحدة والمدن ونداء البعيد، بل عن كليهما.

أركان حلقة الأصدقاء التي ما عادت تنعقد إلّا يوم عطلته. ثمّ بدأت تضيق حتّى اقتصرت على صاحبة البيت وعليه، رأساً برأس، ترشيه بالقول إنّها ستكتب عنه ديوان شعر بعنوان "الآتي من الشرق". أمضى شهرين في قفص الحبّ. ضجر من طول الإقامة في السرير ومن الإصغاء إلى الصور الشعرية، وفي يوم سماؤه صافية، فرّ من دون إنذار. فعدّلت عنوان مجموعتها القصصية الجديدة ليصبح "المرأة التي لم تعرف كيف تحتفظ بالرجال".

أرسله صاحب "لو سيدر دو ليبان" إلى أفريقيا، فافتتح مطعماً في داكار وآخر في ياونده وصار يرتاد المطبخ ويشارك في إعداد الأطباق وإغناء قائمة الطعام. أوّل مَن قدّم إلى الزبائن من الجاليات العربيّة وحتى من البورجوازيّة المحلّية السوداء التبّولة من دون برغل، كما أدخل الكرز على الكفتة بالصنوبر ودبس الرمّان. يدشّن المطعم بسهرة مشهودة، ويتأكّد من انطلاقه قبل أن ينتقل إلى لندن ثمّ إلى موسكو لافتتاح فرع آخر، والأكل أينما حلّ مفتاحه إلى قلوب النساء.

حدثت معه فصول غريبة مثل مثابرته ثلاثة أشهر على معاشرة امرأة بولونيّة نسي اسمها بسبب صعوبته يوم قرّر وضع قائمة بمَن شاطرهنّ السرير. لم يكن يعرف من لغتها كلمة واحدة. تشهق من اللذة عندما

كان دوام العمل صعباً. شمح له بيوم عطلة وحيد في الأسبوع، يشرف على العاملين، ينظّم مآدب الأعراس والدعوات العائليّة للّبنانيّين المغتربين الذين يحبّون الأكل جماعة. يحمل الشيكات والمال السائل إلى المصرف ويتصادق مع الزبائن. سيّدة ترتدي دائماً اللون السماويّ ومشتقّاته، تأتي أحياناً وحدها عند الظهر، سألته عن أحوال بلاده وأعجبها شرحه لمكوّنات الكبّة الحلَبيّة بالرمّان والفطر وخلاصة قوله إنّ العولمة بدأت تظهر أوّلاً في صحون الغداء. أعجبت بفطنته وسعة اطّلاعه ودعته إلى "حلقة الثلاثاء" في بيتها حيث جمعته بشلّة من المعجبين بأدبها. أصدرت سبعة كتب وتعمل على الثامن، تستعيد فيه كما في جميع سابقيه شبح أب صارم تقاعد من الخدمة العسكريّة في الجزائر، يفرض سلطته بصمته. أمّ رقيقة تمضي أيّامها تتنهّد، تشتغل الكروشيه وتصادق الزهور والهررة، وأخ مضطرب متّشح بالسواد انتهى به المطاف في مستشفى الأمراض العقليّة حيث تزوره مرّة في الشهر. تلقي ذلك تارة شعراً وتارة في قصص قصيرة. يهتف لها ضيوفها الذين لا يبخلون في مدح مشاعرها الرقيقة وهي تقول إنّها تتقن الطبخ وتستمتع بالكتابة ولا ينقصها سوى الحبّ الذي فقدته من زمان. كانت تقول هذا وهي تنظر مباشرة في عيني زكريا الذي صار من

المطاعم والمآكل اللبنانيّة، بل أراد أولاً التعرّف إلى اسمه واسم والده وصولاً إلى اسم جدّه جبرائيل، فتأكّد أنه مسيحيّ، ثمّ دار بينهما حوار لبنانيّ بامتياز: "من أيّ عائلة أنت؟".

– من آل مبارك.

– أعرف أناساً من آل مبارك من شرق صيدا.

– نحن من تلّ صفرا، فوق بيروت، ويُقال أنّ جدودنا قدموا من شمال لبنان.

– مَن أعرفهم من آل مبارك هم من الروم الكاثوليك.

– نحن موارنة.

ارتسمت على وجه الرجل ابتسامة عريضة. اعتذر من محدّثه وقال إنّه في واقع الحال يعمل لديه موظّفون من "جميع الملل" كما قال، لكنّه لا يثق إلّا بالموارنة. عرف زكريا لاحقاً أنّ الرجل ملقّب بـ"الأبرص" بسبب شقاره وحَبّ النمش في وجهه. حصّل شهرة في الحرب الأهليّة. كان مرهوب الجانب ومحاطاً بمساعدين له من زمن القتال انتقلوا معه إلى تجارة المطاعم اللبنانيّة في الخارج. وافق زكريا على الوظيفة التي بدت له أدنى من مؤهّلاته بعد أن أدرك أنّ أموال والدته في سترته الجلديّة تخفّ سماكة ولن تصمد أكثر من ستّة أشهر.

دو ليبان" كثير الأسفار، وتبيّن فيما بعد أن استثماره في الأكل اللبنانيّ ليس سوى غطاء لتبييض الأرباح من تجارات غير مشروعة بين أفريقيا وأوروبا. وكان اختيار عواصم محدّدة لافتتاح مطاعم فيها مرتبطاً بنشاطات له فيها مع شركاء، بعضهم معروفون لدى "الإنتربول" وآخرون يضعون رِجلاً في حقل الجريمة المنظّمة. زوجته الأرجنتينيّة تُصاب، كما هو متوقّع، بالضجر الشديد في غياب زوجها، ورغم اتّخاذ زكريا جميع الاحتياطات الممكنة كأن ينتظر سفر الزوج أو ألّا يواعدها مرّتين في الفندق نفسه، تكفّل موظّف صغير طموح كشفَ الأمر. بعث رسالة مغفّلة إلى ربّ العمل الذي استجوب زوجته والحزام الجلديّ في يده مهدّداً بإعادتها إلى أهلها المعوزين في الأرجنتين حتّى بكت واعترفت وأقسمت أنّها هي التي تحرّشت بزكريا وناشدته ألّا يتركها بعد اليوم وحدها لأوقات طويلة.

لم يظهر "الأبرص" أيّ امتعاض من زكريا، واستمرّ يكلّفه المهمّات هنا وهناك، لكن ذات ليلة تعرّض زكريا في موسكو لاعتداء ليليّ وضرب مبرح على يد ملثّمَين عملاقَين أصاباه بجروح وهما يشتمانه باللغة الروسيّة وتركاه مرميّاً أمام مدخل البناية التي يسكن في شقّة فيها. اعتقد زكريا أنّه وقع ضحيّة خطأ ولم يكن هو المقصود، لكن عند سفره إلى الكاميرون وُجّهت إليه

تتذوّق البوظة مع غزل البنات وحلاوة الأرزّ التي يحضّرها لها بيده، تماماً كما تشهق خلال الحبّ ثمّ تبكي من بعده. تصرخ بأسماء علم غريبة قبل أن تغنّي لنفسها أرجوزة تتذكّرها من أمّها فيحتضنها زكريا حتّى تغفو متعبة على يديه.

كانت المصادفات، أو ربّما نزعة لديه دفينة، تضعه دائماً على طريق نساء أكبر منه سنّاً حتّى تورّط مرة في صداقة حميمة مع أمّ وابنتها، يتنقّل بين شقّتيهما كأنّه في شريط سينمائي رخيص، يموّه في المواعيد، يكذب ويطبخ لكلتيهما حتّى ضاق ذرعاً كعادته فغادر بعد أن سرق من كل منهما تذكاراً صغيراً: حمّالة صدر أو دبّوس شعر. يختفي مخلّفاً وراءه مشاعر لم تذبل وثياباً في خزانة غرفة النوم عجز عن إخراجها من دون إثارة الشكوك. يترك قبّعته ليضطرّ إلى شراء واحدة جديدة. يمشي ولا يكتب رسالة وداع ولا يجري اتّصالاً هاتفيّاً. يحضر انشقاقه في الوقت الذي تكون فيه العلاقة في أجمل أيّامها لأنّه بات يعرف أنّ الأيّام التالية كفيلة بجعل الملل يجتاحها كالعشب البريّ.

بقيت هذه المغامرات من دون آثار جانبيّة حتّى همس الشيطان لزكريا الاستجابة لما تبديه زوجة وليّ نعمته، "الأبرص"، من اهتمام به، وما ترسله من نظرات واضحة المعاني. وكان صاحب سلسلة مطاعم "لو سيدر

تهمة اختلاس أموال موثّقة بإثباتات ملفّقة فور وصوله إلى ياونده. هدّدوه بالسجن فاضطرّ أن يدفع مالاً لم يأخذه أصلاً، فانتهت علاقته هنا بتجارة المآكل اللبنانيّة عندما قال له أحد رجال الشرطة الكاميرونيّين إنّ "الأبرص" يهديه السلام.

دفع الكثير في سبيل نساء لم يكن متأكّداً البتة أنّه أحبّ أيّاً منهنّ خصوصاً قرينة الأبرص التي لا تنفكّ تصلّي للعذراء مريم سيّدة الغواديلوب السوداء وهي تخون زوجها. ترسم إشارة الصليب إذا انطلقت بها السيّارة أو إذا استقلّت المصعد إلى الطوابق العليا. خيّروه في ياونده بين إعادته إلى لبنان أو فرنسا، ففضّل فرنسا لأنّه احتفظ لنفسه بحساب مصرفيّ سريّ هناك عندما كانت أعماله مزدهرة ولأنه لم يعرف كيف يعود مكسوراً إلى أمّه وأخته. بعد أيّام معدودة في باريس، اتّصل هاتفيّاً مرات عدّة ببيت أهله، وكان يغلق السمّاعة ما إن يسمع صوت مرتا في الجانب الآخر.

اشترى سيّارة سيتروان مستعملة وقادها بنفسه جنوباً إلى سان بول دو فانس.

في ساحة فريدريك ميسترال. عناق مشتعل كان يجب أن يحدث فور ترجّله من سيّارة السيتروان وظهوره في باب الفندق بقبّعته المائلة وحقيبة سفره الحمراء.

التصق جسداهما منذ الليلة الأولى فحملها وصعد بها إلى الغرفة المطلّة على الأفق الأزرق التي أنزلته فيها في الطابق الثاني فور وصوله. تعثّر لاهثاً وهي تطوّق عنقه بيديها في إيجاد المفتاح والدخول، فارتميا على السرير وخلعا ثيابهما وهما ممدّدان لا ينفصلان، مستيقظان حتى ظهور خيوط الفجر الأولى. باحا لبعضهما بعضاً لاحقاً أنّهما لن ينسيا أبداً تلك الليلة من شهر أيّار. قالت ماتيلد إنّ الكواكب كانت يومذاك في اصطفاف نادر: القمر، عطارد، الزهرة في خطّ مستقيم تماماً، فابتسم زكريا وقال إنّه مولود في برج العذراء.

– العذراء؟

جحظت عيناها من المفاجأة وتأكّد حدسها أنّهما في الزمن المثاليّ لحبّهما. لم يخبرها، بالطبع، أنّه اكتشف مؤخّراً التاريخ الحقيقيّ لولادته في مفكرة أمّه وهو غير المدوّن على بطاقة هويّته، ما يضعه بلغة الفلك تحت رعاية برج الدلو.

في الأيّام التالية، عمدا إلى دوزنة مشاعرهما

توقّفا، قبل أن تستقلّ ماتيلد لاغرانج سيّارة التاكسي إلى محطّة ليون للقطارات وهي تحمي رأسها بحقيبة اليد من أولى قطرات المطر.

احتفلا في اليوم الأوّل. جلسا في حديقة الفندق الخلفيّة حول زجاجة نبيذ أبيض ثمينة ومثلّجة. يسند ذقنه بكفّه ويتأمّل وجهها. تتسلّح بالصّمت ثمّ تقول إنّها كانت دوماً تتوقّع قدومه، ولم تيأس يوماً من انتظاره. يُخرج بطاقتها من جواز سفره: "حفظتُ عنوانك ذخيرة لأيّامي الصعبة!".

تبتسم ولا تشبع هي أيضاً من تفحّصه؛ إنّه يطابق فكرتها عن الرجل. يجيبها بعد جرعتين من النبيذ أنّها فاجأته في باريس، خرجت عليه من حيث لم يتوقّع، من مقاهي هوبّر الليليّة، من غموض نسائه، من أمكنة لا يعرفها ولن يتعرّف عليها.

استمرّا هكذا إلى ساعة متأخّرة يتوهّمان أنّ ما نسجته لهما المصادفة نادر، حتّى تعبا من النبش في مشاعرهما وصياغتها في كلام الفصاحة والإغواء، وراحا يقطعان المبادلات الكلاميّة بملامسات بالأصابع ومداعبات ناعمة على الخدّ أو الذراع. كان كلّ ما يقولانه تحضيراً للقبلات الفرنسيّة الحارّة التي انفجرت بينهما عندما خمدت الحركة في الفندق، بُعيد منتصف الليل كما أعلنت ساعة كنيسة القدّيس جوليان الفقير

فوق مكتب الاستقبال صورة فوتوغرافيّة بالأبيض والأسود لواجهة "دوّار الشمس" كما كانت تبدو في غرّة القرن العشرين، وخلف المكتب يجلس رجل ستّينيّ نحيل الجسم عصبيّ المزاج، جيروم، اسمه محفور على رقعة فوق عروة سترته. نظر إلى زكريا فور دخوله بعين الارتياب. لم ينادِ على ماتيلد إلّا بعد أن طلب اسمه وسأله بفضول عن حاجته إليها، فإذا بها تدخل مصادفة من باب خلفيّ. تشهق من المفاجأة وتضمّ زكريا بحرارة لم يتوقّعها لا هو ولا جيروم الذي استسلم لتلك الصّداقة التي لم يكن على دراية بها. همست ماتيلد لزكريا بلهجة متواطئة مشيرة إلى السيّاح اليابانيّين المتجمّعين في بهو المدخل الصّغير: "لا تهتم، إنّهم جميعاً مغادرون بعد ظهر اليوم".

دخلت في صلب الموضوع من اللحظة الأولى. تفحّصا بعضهما بعضاً لثوانٍ. لمح ذبولاً في عينيها وتجاعيد في عنقها.

"أنت تزداد شباباً"، قالت له كأنّها قرأت في أفكاره.

أكملا المُسايفة الكلامية التي كانا قد بدآها في باريس، كأنّ أربعة أعوام لم تمرّ. استأنفا من حيث

وزكريا ينساق وراء الموسيقا نفسها ويخلط بسهولة فائقة بين الأحاسيس الصّادقة وتلك المستعارة من بعض مطالعاته أو من كلام الآخرين عن الغرام. لم يكن زير النساء الذي يمكن تخيّله، فهو لا يكذب بل يتورّط بداية الأمر في المشاعر أو بالأحرى في تعبيره عن هذه المشاعر، ويمضي الوقت المتبقّي في محاولة التحرّر منها. كان لمَن يعرف عائلته وماضيها مزيج متناقض من جدّه جبرائيل الذي لم يوقفه عن مطاردة النساء سوى خجله من عجزه الطارئ حينذاك عن إرضائهنّ، ومن أمّه أميلي التي ورث عنها الرقّة وهشاشة الأطباع والتي كان يتعرّف عليها في مختلف أطوارها من دفتر يوميّاتها السميك.

بعد أن أنهيا تفاهمهما العاطفيّ وهو العقد الشائع بين المتحابّين في بداية الطريق، ولا بدّ أنّ الاثنين أبرما عدداً منه خلال تجاربهما العاطفيّة السابقة، طافت به ماتيلد في أرجاء الفندق. تتبادل القبل على الخدّ مع بعض الزبائن من الذكور، تعرّفه إلى العاملين والقائمين على الاستقبال نهاراً وليلاً بصفته مديرهم الجديد. راجعت معه قوائم الأسعار والتخفيضات المتاحة لمكاتب السفر تبعاً للمواسم.

كان موهوباً، يترك أثراً حيث يعمل ويصبح من الصّعب الاستغناء عنه. يردّ شخصياً على اتّصالات

الزبائن وشكواهم. يقحم أنفه في جميع التفاصيل. يحنّ إلى المطبخ لكنّه لم يجد وسيلة لإدخال أطباقه المفضّلة إلى قائمة الطعام الفرنسيّة التقليديّة في "دوّار الشمس". يجد الشيك في أوّل كل شهر موقّعاً من ماتيلد لاغرانج فوق مكتبه: مبلغاً محترماً إضافة إلى كونه كما يُقال معلوفاً موقوفاً مثل خيل الدولة.

تتركه وحده وتغيب مرّتين في الشهر، لا تفصح عن وجهتها ولا عن سبب غيابها. كان خير وكيل، أحبّه العاملون في الفندق لكنّه لم ينجح من المحاولة الأولى في كسب ودّ جان باتيست، ابن ماتيلد الوحيد، إلى أن فعلت الهدايا المختارة فعلها، فذاب الجليد بينهما وصار يرافقه في الأيّام الحارة إلى شاطئ البحر. أمضى زكريا في النزل عامين كأنّه متخفٍّ لا يُعرف إلّا باسمه الأول، زاكاري. إذا دخل بعض أبناء جلدته قاعة الاستقبال، امتنع عن التلفّظ بكلمة عربيّة واحدة وادّعى الانشغال بعيداً عن فضولهم. لكنّه ثابر على قراءة كتب أمّه، فبعد أن أنهى **ملوك العرب** و**البخلاء** في باريس، بدأ في إقامته الجديدة التعرّف إلى الشعر العربيّ القديم الذي كان من مصادر والده الرئيسيّة في فهم الدّنيا وأحوالها.

تحيطه ماتيلد بكلّ عناية، تشاطره غرفته أحياناً ولا تدعوه إلى حيث تقيم. أخبرته عن جدّها الذي حوّل البيت "البورجوازيّ" الفرنسيّ إلى فندق أضاف إليه

طابقاً واشترى الحديقة الخلفيّة وضمّها إليه. كان البيت ملكاً له ولشقيقه الذي سافر إلى نيويورك ولم يعد، بل بعث رسالة طويلة واحدة فقط كان والدها يعيد قراءتها عليهم من حين إلى آخر. يعلن فيها قطع علاقته نهائيّاً مع عائلته في فرنسا ومع القارّة الأوروبية العجوز بعد أن اكتشف الحرّية والمساواة الفعليّة في أميركا كما قال. وقيل عنه أنّه ساكن امرأة جميلة تصغره سنّاً بكثير قادمة من إحدى بقاع الشرق الأوسط ورثت كلّ ما يملكه في نيويورك وكلّ ما تاجر به وعادت به إلى بلادها.

في الحرب العالميّة الثانية، حوّل الجنود الألمان الفندق إلى مركز قيادتهم عندما وصل احتلالهم العسكريّ إلى جنوب فرنسا. صُوّرت فيه من بعدها أفلام عدة، واستقبل رسّامين ساعين وراء الضّوء السّاحر في هذه الأرجاء المتوسّطية، يأويهم والدها مجّاناً مقابل أن يرسموا بورتريه لابنته الوحيدة ماتيلد. هكذا، تجمّع لديها ما لا يقل عن عشرين صورة لها بالماء والفحم والباستيل وحتّى لوحة زيتيّة تصوّرها جالسة في أرجوحة الحديقة. كان يُخيّل إلى زكريا وهو يتنزّه معها وهي تحكي باقتضاب وإبهام عن زواجها المبكر وطلاقها، وعن إعجابها ببول فاليري وتعلّقها بابنها جان باتيست ومن بعدها اعتقادها أنّها التقت الرجل الذي

- لماذا؟

- لأحرِّركَ منّي، يمكنك الآن حزم حقائبك والانصراف إلى حياة أخرى، لن تعدم واحدة أخرى تستحقّها أفضل من هذه.

لمع الدّمع في عينيه وضمّها طويلاً إلى قلبه.

أضافت وهي تبكي بدورها: "ولأنّني سأفقد شعري بسبب العلاج وألبس شعراً سخيفاً مستعاراً وسأصبح من دون رغبات مدة من الوقت، أموت بعدها أو أسترجع حيويّتي".

بين ساعة وساعة، بدأ الحنان يزاحم الرّغبة لدى زكريا. لن يشتهيها بعد اليوم رغم استمرارهما في الالتقاء فوق سرير غرفته. ازداد اهتمامه الخارجيّ بها، وكذلك ازداد حرصه على ألّا يبالغ كي لا يذكّرها في كلّ سلوك لطيف أنّه يرعى صديقة مريضة. تغيّر لون الأيّام بينهما، مال إلى الرماديّ ثمّ ظهر "الكمنجاتيّ الأزرق" فجأة.

لوحة زيتيّة متوسّطة الحجم موضوعة داخل إطار خشبيّ مشغول أوقفتها ماتيلد على الأريكة بعد ظهر أحد الأيّام وسندتها إلى الجدار. جلسا جنباً إلى جنب وبدآ يتأمّلانها. يحتلّ المساحة الأكبر منها رجل أقرب إلى المهرّج بثوبه المرقّع بالألوان وقبّعته المضحكة، معلّق ليلاً في سماء صافية فوق سطوح بيوت قرية

والسكوت عندما يهبط جسمها في المقعد وتزوغ نظراتها.

عرف من جيروم. تأخّرت ماتيلد مرّة عن موعد عودتها المقرّر. سأل الرجلَ الستّينيّ فلم يبخل بالإجابة أو كأنّه ينتظر السؤال ليخبره أنّها تقصد المستشفى الجامعيّ في مرسيليا لتلقّي العلاج الكيميائيّ مرّتين في الشّهر. إنها مصابة بسرطان الدم، اللوكيميا، ويحدث أحياناً أن تكون متعبة بعد العلاج فتفضّل الابتعاد عن الأنظار عند خالتها في مرسيليا حتّى تستعيد نضارتها.

اهتزّت الدّنيا من حول زكريا، انفجرت فقّاعته، انتهى أمره لكنّه تماسك. لم ينهر، حاول التّمويه فسأل جيروم: "هل أنت من أقاربها؟".

لا، لكنّني أمضيت حياتي في هذا الفندق. بدأت مع والدها في الخمسينيات، كان رجلاً عظيماً التحق بالمقاومة الفرنسية إبّان الحرب.

عادت ماتيلد من مرسيليا، كانت هي نفسها كما عرفها دائماً لكنّه لم يستطع أن يخفي عنها عينيه الحائرتين.

– هل أخبركَ جيروم؟

– نعم.

– أنا طلبتُ منه أن يخبركَ.

– لكن أنا الذي سألته عنكِ.

– كان سيجد طريقة لإبلاغكَ.

كانت تسعى إليه من دون أن تعرف مَن هو، يُخيّل إليه أنّه يعيش داخل فقّاعة يحرسها القدر. وأحبّ التصديق أنّ الفضل يعود إلى دعوات أمّه أميلي، فبعث إليها رسالة وكان حينذاك آخر زمن الرسائل الورقيّة المكتوبة، يخبرها فيها أنّه بدأ يستعلم عن أفضل الطرق لتعلّم صناعة النبيذ كما وعدها قبل رحيله، وأنّه يقيم الآن في مكان جميل مع أناس طيّبين. "لا شيء في الدنيا يعوّض محبّتكِ ومحبّة مرتا وحنيني إلى بلدي، لكنّها المرّة الأولى منذ رحيلي أشعر أنّ بإمكاني الاستقرار هنا...". تردّد قليلاً ثمّ أضاف: "ولو لوقت ليس بالقصير". قبل أن تصل الرسالة إلى بيته على سفح جبل لبنان، قبل أن يسلّمها ساعي البريد إلى شقيقته مرتا وتسارع إلى فتحها حتّى قبل أن تقرأ اسم أمّها عليها، علم زكريا بمرض ماتيلد لاغرانج.

بدأ منذ أشهر يرى بقعاً داكنة على بطنها وظهرها، وانتبه كيف بدأت تصرّ على إطفاء المصابيح الكهربائيّة على ما يشبه الظلمة بينهما وتبررّها بكلام غير مقنع عن الخصوصيّة، وتُسرع بعد الحبّ إلى ارتداء ثيابها لإخفاء عريها. لم يسألها السبب فيما اعتقد أنّه "عورة" طبيعيّة، وكان يلاحظ أيضاً التناوب لديها بين أوقات الحبور التي يتدفّق منها الكلام والضّحك، ولحظات الضمور

فقيرة وهو يعزف على كمان صغير وعصفور يقف على كتفه وآخر على فخذه، القمر من فوقه وباقة من الزهور السماويّة عن يمينه.

تعرف صاحب اللوحة، مارك شاغال، جالسته مرات عدة. أخبرها عن طفولته المتواضعة، عن والده الذي لم يكن يريد له أن يمارس الرسم، دينه يحرّم عليه تصوير خلق الله. جاء إلى الغرب وتوفّي عجوزاً في بيت فوق المرتفع اشتراه في سان بول دو فانس. يرتاد "دوّار الشمس"، يجلس في الحديقة مع زوجته، وإلى هنا حمل إلى والديها ذات يوم ومن غير سبب معلن هذه اللوحة. طلب منهما فقط الاعتناء بالكمنجاتيّ، فهو موسيقار قريته الحزين في روسيا البيضاء، يعزف في الأعياد ويمدّ قبّعته للحصول على بعض الدراهم.

- لماذا أسماه "عازف الكمان الأزرق" مع أنه لا أزرق في اللوحة سوى بقعة صغيرة وسط باقة الأزهار؟

سألته هذا السؤال، فقال إنّ العنوان لا يجب أن يختزل العمل، "العمل يختزل نفسه ولا حاجة إلى التكرار".

رفع زكريا كتفيه غير مقتنع ورفعت ماتيلد اللوحة وحمّلته إيّاها: "أريد منك أن تأخذها إلى غرفتك وتعلّقها على الجدار مقابل سريرك لتكتشف أنّ اللوحة تكون

جميلة تبعاً لقدرتنا على تحمّلها ثابتة أمام ناظرينا لوقت طويل".

كان زكريا حين يتمدّد فوق سريره يتأمّل "عازف الكمان" ويغرق في التفاصيل الظاهرة حوله، ثمّ يغيب عنه ويتأمّل في حاله مع ماتيلد. بدأ دور العاشق بالتلاشي تدريجيّاً وأحسّ أنّ السيناريو النسائيّ، الغرام ويليه الهجر، يتكرّر معه، أي كلّما شعر أنّ وجوده بات حيويّاً بالنسبة إلى المرأة التي يعاشرها، ضاقت به الدّنيا. اختنق، أدرج نفسه مع المضطهدين وبدأ يتحيّن الفرصة للخروج. لكنّ مرض ماتيلد يقف حائلاً أمام فراره. لن يتركها ويمشي بل يريد لها أن تشفى تماماً، أن تستعيد معنويّاتها، وربّما أن تعمد هي إلى الابتعاد ليصل أخيراً إلى فصل الفراق المفاجئ، لكنّه كان عاجزاً عن هذا القدر من الحيلة.

تابع نتائج الفحوص الطبّية، ورافقها أكثر من مرّة إلى المستشفى في مرسيليا. يقود السيتروان وهي جالسة إلى جانبه. تلاشت شهوة الكلام بينهما. ينقضي نصف الطريق في صمت مطبق. يتحدّثان عن توقّعات الطقس مثل المتقاعدين. تشعل الراديو أحياناً خوفاً من الفراغ. اختُتمت سلسلة العلاجات الكيميائيّة وجاءت النتائج من بعدها إيجابيّة، لكنّ الطبيب لم يُخفِ أنّ احتمال ظهور المرض من جديد لا يزال قائماً؛ الإحصاءات تقول

ذلك. صبر زكريا شهراً إضافياً. كانت فرحته خلاله باستعادة ماتيلد عافيتها وجمالها فرحة صادقة. كان يصعب التنبؤ بأنّ سبب ابتسامته العريضة كلّما رآها، وقبلاته التي استعادت بعض حرارتها، هو اقتراب ساعة تحرّره.

رافقت جان باتيست في عطلة نهاية الأسبوع إلى المغرب. هذه المرّة، بدلاً من حمّالة الصدر أو البروش المذهّبة، اختار زكريا مبارك أن يسرق لوحة "الكمنجاتيّ الأزرق". حزم حقيبته ومشى عند ساعات الفجر الأولى. لم ينتبه إلى جيروم. لم يكن ناظر الليل متفاجئاً بهرب زكريا وهو يرصد خطواته ويتابعه منذ سمعَ المصعد القديم يُشغَّل في ساعة غير مألوفة. تقدّم نحو باب المدخل ليراه كيف يتلفت في الساحة المقفرة وهو يحمّل حوائجه ويدير محرّك السيتروان مبتعداً من سان بول دوفانس كما وصلها في يوم ربيعيّ صافٍ قبل عامين. كان يفضّل الفرار في الطقس الجميل.

في ذكرى سقوط الباستيل في قرية نائية من بلاد النورماندي السفلى.

في المرّات القليلة التي يحكي فيها مع أمه وشقيقته، يشعر أنّ الأمور هناك على حالها. كان صوت أميلي خافتاً والكلمات التي تخرج من فمها بصعوبة تشي باستمرار وقوفها عند هاوية نفسها الكئيبة. تعوّض شقيقته مرتا فارق الكلام وتمازحه بشأن زواجه المؤجّل دائماً، فيردّ إليها الكيل كيلين من الموضوع عينه، ويسمع ضجيج راحيل التي تطالب بسمّاعة الهاتف ولا من يستجيب لطلبها.

بعد مرور الوقت الكافي لتكفيره عن خياناته النسائيّة وهجره اللئيم لماتيلد لاغرانج، عاد زكريا مبارك إلى طبعه الأصلي. بدأ يهتمّ من جديد بالعابرات التائهات، يعرفهنّ من نظراتهنّ، في الحدائق العامّة أو الحانات، يتحرّش بالجالسة وحيدة تقرأ، يعرف أنّها مستعدّة لاستبدال كتابها السميك برجل يؤنس وحشتها لو بكلام كاذب منمّق تعرف أنّه كاذب ومنمّق. نساء لليلة أو ليلتين، من كلّ الأعمار، لا يسأل عن أسمائهنّ ولا يبقى منهنّ بعد رحيلهنّ سوى رائحة عطر غامضة، قرط أذن أفلت سهواً، أو إصبع أحمر الشفاه اختلسه من فوق

اللونين الأسود والأبيض مع الشريط الأحمر في قبعته فقط، يتبضّع على مهل وفي يده سلّة قصب من أسواق الخضار والأجبان الجوّالة، ويعود ليأكل من يده وفنون طبخه. يستمتع بالقيلولة، ويكمل قراءة المختارات العربيّة من أبي حيّان التوحيدي في **الإمتاع والمؤانسة** إلى ميخائيل نعيمة في **سبعون**. يسافر حاملاً كلّ متاع حياته في حقيبة واحدة وفي اليد الأخرى يلوّح بالأنبوب المعدنيّ الثمين الذي أضاف إليه حمّالة فصار يرفعه على كتفه مثل بندقيّة الصّيد. يختار قطاراً يتوقّف في جميع القرى والمحطّات، الأومنيبوس الذي يستقلّه ركّاب وُدَعاء قانعون لا يسابقون الوقت. يترجّل حيث توحي له الأسماء أو تناديه العمائر أو يلمح طيفاً، امرأة أو رجلاً، يضفي على المكان سرّاً. يجلس فوق الجسور الحجريّة القديمة، يحتسي القهوة السوداء في السّاحات الصغيرة، يدخل الكاتدرائيّات ويصغي إلى الأرغن الكبير وإلى الجوقة تصدح بترنيمة "المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام". وقف نصف ساعة في متحف اللوفر أمام لوحة "عوّامة الميدوزا" لجيريكو مقتنعاً أنّ هذا الرهط من الغرقى الذي تضربه الأنواء من كلّ جانب يختصر مصير البشريّة جمعاء. أكل الديك المطهوّ بالنبيذ وتعلّم إعداده. انتظر المدّ في خليج المون سان ميشال ورقص الفالس على موسيقا المزمار

9

لم يطارده أحد، لم يسأل عنه أحد، كأنّ هربه كان متوقّعاً. نجا بالفعلة الدنيئة التي لم يكن يتخيّل نفسه قادراً على ارتكابها. نزع اللوحة الزيتيّة من إطارها الخشبيّ ورماه، لفّها بالورق العازل وأدخلها في أنبوب من المعدن الرقيق الصّلب لترافقه في باقي سنوات غربته. يتأهّب فقط عند تقدّمه من رجال الجمارك في المطارات ويستعدّ للادّعاء إذا ما سُئل أنّها تقليد للّوحة الأصليّة وأنّه يرسم هواية ورسومه غير معدّة للبيع. يفرج عنها أحياناً، يتأكّد من سلامتها، يؤمّن عليها في خزنة المصرف عندما يكون ميسوراً وإلا فتنام معه في السّرير. شهدت على مأساة حياته، عبرت معه المحيط الأطلسيّ ذهاباً وإياباً والبحر الأبيض المتوسّط في رجوعه الأخير إلى مسقط رأسه.

بعد هربه من سان بول دو فانس صام زكريا مبارك عن النساء. كان بحاجة إلى نقاهة طويلة من الجهد البدنيّ لإرضائهنّ ومن مصارحات الغرام. تمتّع بالسكن وحده في استديو فسيح وعلى سرير فسيح يبعثر فوقه أغراضه، حرّاً في مواعيد رقاده ونهوضه وساعات نهاره وموسيقاه وصحيفته. يلبس ما يحلو له من

الصنوبر أو جبنة الكامامبير المشويّة مع المشمش المجفّف والزيتون، قبل أن يدّعي الاضطرار إلى السّفر صباح اليوم التالي ملوّحاً من بعيد ببطاقة قطار فات موعدها من أشهر، ليستعيد حريّته، استقلال جسده لو لوقت قصير، فيسيح شرقاً، نحو الحدود الفرنسيّة- الألمانيّة. يتسلّق إلى قصر كنيغسبورغ العالي كأنّ الجنّ شيّده هناك وينحدر إلى وادي القدّيسة أوديل. يسلك درب النبيذ ويلتحق بدورة حول الكرمة بالقرب من ستراسبورغ. يريد إكمال ما بدأه والده وفشل في تحقيقه. يعرف عن العنب ما تعلّمه من إبراهيم، أي الفرق بين طعم المريني والزيني الخالي من البذور وبين المرواح والشامي الذي لا يحلو إلّا في آخر تشرين الأوّل. جاء يتعلّم كيف يزرع كرم أهله بجفنات عنب الريسلينغ الذي لم يسافر بعد إلى ضفاف المتوسّط ويصنع منها نبيذاً أبيض لا يُضاهى. لم يثابر، جالَ في الغابة السوداء ضمن رحلة سياحيّة منظّمة فضربه القدر بامرأة شابّة، واحدة من اللواتي ادّعى يوماً أنّ قلبه لم يخفق لهنّ مرّة. هكذا، في عزّ عبثه وتحويله اللقاء مع النساء إلى مجرّد دعابة جنسيّة وثرثرة، يوماً حول عظمة الدنيا ويوماً حول تفاهتها، تمارين متوالية على الإغواء تتداخل فيها النظرات والعبارات الجاهزة،

وبلغت منه حدّ التلف، التقاها فأفقدته السيطرة على حياته.

طولها متر وأربعة وستّون سنتيمتراً، ووزنها خمسة وخمسون كيلوغراماً، تنتعل أحذية قياس ستّة وثلاثين. جلس إلى جانبها في مقاعد الحافلة الخلفيّة. ذكّره شعرها الأسود اللمّاع وفستانها الورديّ المنقّط بالأبيض بقدامى ممثّلات هوليوود، وحاول الاهتداء إلى اسم يلبسها إيّاه إلى أن استيقظ فجر اليوم التالي وهو يتمتم: فيفيان لي، إنّها فيفيان لي. أخذته على حين غرّة. قاوم أيّاماً اندفاعته تجاهها. صوت عميق داخله حاول تحذيره من الانزلاق لكنّه لم يُصغِ. يشدّ على نفسه، يتفادى اللقاء بها مرّة، ثمّ لا يلبث أن يسعى وراءها في الفندق عند هبوط المساء. هو الخبير في النساء فقدَ بلاغته وجعله صدقُ مشاعره متلعثماً لا يكمل جملة، كما بدا أخرق ترتجف يده إذا حمل إليها فنجان القهوة. هو الذي اعتقد أنّه استهلك مشاعر الحبّ وحرّر قائمة بالنساء اللواتي فاز بهنّ في حياته ثمّ مزّقها حياء، اكتشف في نفسه هذا الاندفاع الذي لم يعرف من أين خرج!

في آخر أيّام الرحلة، كانا يتنزّهان في ساحة كاتدرائيّة ستراسبورغ وكان ختام محادثتهما

بالإنكليزيّة: "أنا عائدة إلى بوسطن، ولا أعرف ماذا ينتظرني هناك".

- غداً؟

- نعم.

- وهل تمنحينني مهلة لبضعة أيّام لأحصل على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة؟

- لا أنصحكَ بمرافقتي... أنا لستُ شخصاً جديراً بالمعاشرة.

- ومن قال لكِ إنّي أبحث عن راحة البال؟

- يمكن القول إنّني حذّرتكَ على الأقلّ.

ثمّ نظرتْ مليّاً إلى وجهه. وقفتْ على رؤوس أصابعها لتتمكّن من نزع القبّعة عن رأسه وتضعها على رأسها وتمشي أمامه وهي تتمايل بمؤخّرتها الصغيرة: "أنتظركَ لكن بشرط".

- ما هو؟

- أن أنجب منكَ ولداً.

- لا أحبّ الأطفال لكنّني أحبّكِ.

- هذا هراء، وأقول لكَ هنا أمام هذه الكنيسة... مَن هو القدّيس هنا؟

- السيّدة العذراء.

- أراهن أنّكَ ستحبّ ابنك ولن تحبّني، وأنّك ستحاول السيطرة عليّ، أنت رجل سافل مثل كلّ

مشية زكريا وتعباً يحفر قسماته ورفضاً قاطعاً لتناول الغداء: "تبدو في حالة مزرية، ماذا فعلت بنفسك، يا رجل؟".

أجاب زكريا بفلسفة واختصار: "إنّها الدّنيا، يا صديقي!".

للأبرص تفسير آخر أوجزه مبتسماً: "قتلتك النساء على ما أعتقد".

قالها متذكّراً مدير المطعم الفاتن الذي كانت تتنافس على حبّه الجميلات الناضجات. رفع زكريا رأسه بالنّفي، لكنّه أضاف كمَن يسخر من نفسه: "كلا، قتلتني امرأة واحدة فقط لا يتجاوز عمرها ست سنوات!".

بلع ريقه، أشاح بوجهه، وكاد الدّمع ينفر من عينيه لو لم يغيّر الأبرص الموضوع شفقة عليه ويروح يمدح إدارته المطاعم، وفعّاليّته واستقامته. وفي محاولة للتعويض عمّا انتهت إليه الحكاية بينهما، أمطر الأبرص زوجته السابقة بسُبحة من الشتائم العربيّة طالت معها جميع النساء الأجنبيّات، أي من غير اللبنانيّات. كأنّه بهجومه، يثأر لزكريا من تعاسة جلبتها عليه حوّاء غربية لم يحاول الاستفسار عنها، وتبيّن في عودته إلى الكلام عن زوجته أنّها كانت تسرق منه المال، آلاف اليوروات، وترسلها إلى أهلها في الأرجنتين. وكانت ما إن يدير ظهره، حتّى تفتح فخذيها لأوّل عابر سبيل، الشرطيّ

جادّات الضفّة اليمنى لنهر السين المزدحمة بمتنزّهين من كلّ صنف. يحمل أحياناً معه قارورة الرّماد الزجاجيّة وهو يتكلّم وحده، ويُوقف من وقت إلى آخر خيط أفكاره وذكرياته بصوت حادّ يطلقه متألّماً نحو السماء، يصرخ به عجزه أو يلوم به نفسه عن أفعال لم يعد ممكناً تداركها. وفي لحظات "تفاؤله" القصيرة والنادرة وإذا بقي له شيء من العزيمة، يخطّط لبيع لوحة "عازف الكمان" ليحصل على مال يزرع به العنب الفرنسيّ هناك في بلدته، في كرم المحموديّة، ويسمّي النبيذ "ماري".

شدّ حيله في أحد الأيّام وقصد الأبرص. الأبرص غريمه، لكن زكريا يعتقد أنّه استحقّ العقاب الذي أنزله فيه ولا يعرف في باريس رجلاً أكثر قدرة منه، يتكلّم لغته ويمكنه كشف أحابيله. وفي آخر لقاء بينهما، لمح ودّاً في عينيه وسط غضبه المشتعل بسبب خيانة زوجته. على كلّ حال، لم يعد زكريا مبارك يخشى المخاطر بل بات يسعى إليها. صدق ظنّه عندما أظهر له صاحب "لو سيدر دو ليبان" رحابة غير منتظرة وهو يدخل من باب المطعم في شارع فرنسوا الأوّل. رحّب بمَن أسماه "الابن الضالّ" وقبّله ثلاث مرّات على خدّه كأنّ شيئاً لم يحدث بينهما. كان لطيفاً، طلب له شراب النعناع بالثلج، وأعرب عن قلقه بعد أن لاحظ ترهّلاً في

الرجال لكنني سأقبل المخاطرة معك. أعتقد أنَ الحياة سلسلة من الارتطام بالجدران وتكون هذه واحدة منها. من أين أنت؟

– من لبنان.

– ما اسمكَ؟

– زكريا.

رفعث كتفيها كعلامة على لامبالاتها.

رافقها.

انتقل ستّ سنوات إلى كوكب آخر، هزمته الحياة بالضّربة القاضية هناك، ثمّ عاد.

عاد أوّلاً إلى باريس.

تطارده المنامات الصّعبة التي تُنتزع منه فيها أحشاؤه ويرفع رأسه عندما يستيقظ في الصباح عن مخدّة بلّلتها دموعه وهو نائم إذا ما وجد إلى النوم سبيلاً. يتوه عن تتابع أيّام الأسبوع، عن أسماء الأشخاص والأماكن، وحيداً في غرفة فندق حزينة تهتزّ بفعل مرور قطار الأنفاق تحتها وتطلّ على حائط داكن في الدائرة العاشرة. لا يستحمّ، لا يحلق ذقنه، يأكل القليل القليل، يأكل عنوة، يعجز عن القراءة، عن التركيز. يتكوّم في السرير، يتّخذ وضعيّة الطفل في أحشاء أمّه، يرفع الغطاء إلى فوق رأسه ويهرب من الصور التي تلحّ عليه. ختم إلى غير رجعة سيرته مع النساء، يهيم في

البلديّ أو معلّم قيادة السيّارات، فطلّقها وارتاح منها وختم ملحمته بالقول: "زوان بلادي ولا قمح الصّليبي".

ارتاح زكريا قليلاً. لم يطل اللف والدّوران؛ لا قدرة له على ذلك، فأخبر الأبرص عن اللوحة الزيتيّة التي في حوزته وكيف أنّه لا يأتمن أحداً غيره عليها.

"تساوي الكثير"، قال له.

– أين هي؟

– في مكان محروس.

– وماذا تقصد بالكثير يا صديقي؟

– ملايين اليورو...

طوّق كتفَي زكريا بذراعه: "هل تمازحني؟".

كان في نظرات زكريا إقدام غير محسوب النتائج جعل الأبرص يتابعه باهتمام، فكتب له زكريا على قصاصة ورق اسم الرسّام وعنوان اللوحة وقياساتها وتاريخ رسمها. لم يكن قادراً أو راغباً في الكلام: "تحرَّ عنها، إنّ صاحبها من أشهر الرسّامين. نتحادث لاحقاً".

– وكيف حصلت عليها؟

– نساء يجلبن الخراب ونساء يجلبن الثراء!

ضحك الأبرص عالياً، فتوسّم زكريا خيراً وبدأ يعدّ العدّة للرجوع إلى بلدته. تكلّم مع مرتا فحاولت إقناعه بالتأجيل، فرفض الإصغاء.

بات مقتنعاً أنّ روحه لن تهدأ إلّا في تلّ صفرا.

هاتَفَه الأبرص بعد يومين: "عندي شارٍ لك...".

كان التمويه معهوداً في هذه الأوساط، فالأرجح أنّ الشّاري هو الأبرص نفسه.

– ... لكن عليك أن تثق بي.

أراد الأبرص أوّلاً الاجتماع مع خبير فنّي: "انا لا أشتري سمكاً في بحره".

أبدى الخبير الذي يتكلّم الفرنسيّة بلهجة غريبة اهتماماً خاصّاً بالشّهادة الموقّعة من مارك شاغال شخصيّاً وفيها تاريخ إنجاز اللوحة وقياساتها. سلّمتها ماتيلد لزكريا يوم أعطته اللوحة ليضعها في غرفته في "دوّار الشمس" كأنّها تتوقّع الشكَ في أصالتها.

لم يُوحِ الخبير لزكريا بالثقة. يقترب من "الكمنجاتيّ الأزرق" ويبتعد، يقترب ويبتعد، يمرّر أصابعه بنعومة على سطح اللوحة. بعد مرحلة الاستكشاف الأولى، أخرج من جيب سترته منظاراً يُلصَق بالعين كالذي يستخدمه مصلّحو الساعات، وركّز على وجه العازف وعلى العصفور الذي يقف على كتفه. يفعل ما يعتقد أنّ "الخبراء" يفعلونه أمام لوحة فنّية من تفحُّص لضربة ريشة الفنّان. يهزّ برأسه مثل رقّاص الساعة ويرمق الأبرص بنظرات واضحة المعنى. وبعد خروج زكريا حاملاً لوحته وشهادة الرسّام، اختلى بالأبرص الذي بدأ

بعدها المناورات التجاريّة: "إنّها تشبه رسوم الأولاد ولا أفهم لماذا تُباع بهذه الأثمان المرتفعة".

لم يكن لدى زكريا ما يقوله ولم يستفهم حتّى عن رأي الخبير.

سأله الأبرص: "صحيح أنّ الرسّام يهوديّ؟".

– نعم، أعتقد ذلك، أصله من روسيا البيضاء.

مطّ الأبرص شفته؛ تأكّدت ظنونه في أمر ما.

اتّفقا على أن يحتفظ زكريا باللوحة، أن يعتني بها جيداً وينقلها مع حقائبه إلى لبنان، وهناك تحصل عمليّة التسليم والدّفع في بلدته القريبة من العاصمة.

– هذه الأمور معقّدة في فرنسا.

لفت الأبرص سكوتُ زكريا خلال الحديث وتأمّلُه في الفراغ، ثمّ قولُه فجأة كأنّه خارج من تفكير طويل أوصله إلى هذه النتيجة: "هل يمكنك أن تبيعني مسدّساً؟".

ضحك الأبرص ولم يبدُ مطمئنّاً إلى مطلب زكريا الذي أضاف للتهدئة أنّه يريده حماية لنفسه بوجود هذه "الثروة" بين يديه.

– تريده هنا؟

– كلا، هناك.

فوعده الأبرص بتأمينه له في لبنان، وأضاف فيما يشبه المقدّم على شراء اللوحة: "المسدّس هدية منّي

منكم طوعاً على حصّة في البيت والكرم أو على تعويض ماليّ عن حرمانهم الميراث".

- ألم يحدّثوكِ عن جدّتنا فيلومينا وما جلبته معها من نيويورك؟

- لا، لم يخبروني ولا تذهبي يميناً وشمالاً.

تزاحمت الغرائب ولم تكن مرتنا أسهل الأحاجي، فحاول كمال أبو خالد أخذها على حين غرّة: "بعد عودة زكريا، هل زاركم شخص غريب عنكم لا تعرفينه؟".

بدأت تسرد أسماء الأشخاص القلائل الذين اجتازوا عتبة البيت هذا الصّيف للترحيب بزكريا، مع انتقاد لرئيس البلديّة الذي يهمل الشؤون العامّة، ومديح لآل نبهان وهم من دروز البلدة وأصحاب "الواجبات الحلوة". توقّفت فجأة: "نعم، جاء رجل لا أعرفه وليس من أبناء البلدة. وصل بسيّارة رانج روفر سوداء، زجاجها داكن، برفقة شابّ آخر انتظره في الخارج وهو ينظر إلى البحر البعيد كأنّه يراه للمرّة الأولى. رفض الدخول رغم إلحاح زكريا عليه".

عرّفها شقيقها إلى الزّائر بالصّوت العالي؛ تعتقد أنّ زكريا رفع صوته كي لا تنسى الاسم: "بديع مخلوف، شيخ الشباب في منطقة مار مخايل في بيروت".

10

سأل قاضي التحقيق المساعد مرتا أن تدلّه على غرفة زكريا قبل أن يوافق على شرب القهوة من يدها، كثيفة بحبّ الهال كما تحبّها هي. ترتدي مرتا الأسود، يضيء جمالها، تكمل تعداد مزايا شقيقها ولا تزال واقفة عند اتّهامها الأوّل: "أخبرني أناس أنّ أولاد عمّي المغضوبين كانوا هنا في البلدة يوم مقتله".

أشار كمال صوب راحيل فهمست له مرتا أنّ عمتها لا تفهم ما يقولانه وهي مريضة بالولادة: "لكنّني أجزم أنّنا سنموت جميعاً وتبقى وحدها هنا!".

- وهل هؤلاء "الأناس" مستعدّون للشهادة أمام المحكمة؟

- لم يشاهدوا ابنَي عمّي بأعينهم، بل سمعوا من آخرين أنّهما مرّا بعد ظهر الأحد مُسرعين نزولاً بسيّارة مرسيدس بيضاء.

- كالعادة، تعجّ القرى بالشائعات.

وجد قاضي التحقيق فرصة يحبّها لتلقين مرتا درساً منهجيّاً: "إنّ أبناء عمك يونس لو هم قتلوا شقيقك زكريا، وحتّى لو نجحوا في قتلكِ أنت وعمّتكِ من بعدكِ، فلن يحصلوا على أيّ ميراث، وهم يعرفون ذلك

ويصلك إلى البيت".

اتّفقا كذلك على متابعة التواصل عن طريق الرسائل النصّية وليس عبر الهاتف مباشرة حفاظاً على السرّية. وقبل أن يفترقا، رفع الأبرص سبّابته في الهواء.

"ما هذا؟"، سأل زكريا.

– مليون.

– مليون ماذا؟

– مليون دولار أميركي.

رفع زكريا ثلاثة أصابع في الهواء وقال: "ادخلْ إلى محرّك غوغل وابحث عن شاغال وكريستيز وانتبه إلى المفاجأة".

فهم الأبرص فرفع إصبعين: "ستصبح غنيّاً، يا ابن مبارك، لكن إيّاك والعبث معي!".

أحسّ زكريا بالخفّة الكبيرة في سلوك الأبرص؛ لم يعد يراهن كثيراً على نجاح العمليّة، فارتسمت على وجهه ابتسامة باهتة ومشى مودّعاً.

تدمع عيناها من جديد.

لا ينقاد وراءها، يدخل غرفة زكريا ويغلق الباب وراءه أيضاً.

الغرفة مرتّبة، زكريا معتاد السكن وحده. سرير وخزانة وطاولة وكرسيّ وحقيبتان؛ اقتصاد غرف الفنادق. رفع القاضي الفراش ونظر تحته فوجد ملصقات أفلام قديمة. انحنى تحت السرير، فتح حقيبتي السفر وخزانة الثياب وجواريرها، فلم يلفت نظره سوى قبّعتين رجّاليّتين، ومجموعة من زجاجات النبيذ، وذكريات نسائيّة، وعرائس، وبينوكيو من الخشب الملوّن، ودبّ كبير من القماش الزهريّ. وقف وسط الغرفة وجال بنظره مرّة أخيرة، فرأى على طاولة الليل في جوار السّرير كتاباً وفوقه رسالة وإلى جانبهما قارورة زجاجيّة داكنة مكتوب عليها "ماري". تذكّر أنّ اسم ماري وردَ في إحدى الرسائل النصّية. سأل مرتا عند خروجه مَن تكون ماري، فقالت إنّها لا تعرف وإنّ شقيقها أُغرم على حدّ علمها بالكثيرات من النساء. حمل معه الكتاب والرسالة وترك القارورة فوق الطاولة. لن يجد ما يهمّه غير ذلك، ولن يجد "عازف الكمان الأزرق"...

فور عودته إلى مكتبه، طلب قاضي التحقيق من الشّرطة القضائيّة الاستدلال إلى بديع مخلوف. يفضّل

حاولَتِ النّفي في الوقت الذي كانت فيه عيناها تبوحان بالعكس.

لا تخادعيني، كنتِ تصغين من وراء الباب.

– أعطاه شيئاً ما مع أنّه دخل فارغ اليدين، وقال له إنّها هديّة من الأبرص.

– مَن؟

– الأبرص.

دوّن المحقّق اسمه.

سمعَت بعد ذلك صريراً حديديّاً وتوصيات من بديع لأخيها بتوخّي الحذر، ثمّ تناقشا مطوّلاً في شأن لم تفهمه.

– لماذا تكذبين على المحقّق؟ هل تحدّثا عن لوحة، عن رسم زيتيّ؟

تفاجأت بالسؤال: "نعم، كيف عرفت؟".

– يدفعون لي معاشاً لأعرف. متى زاركم بديع؟

– بعد شهر على وصول زكريا.

كان المحقّق يتابع فكرته: "ماذا حمل شقيقك في يديه يوم خرج من هنا قبل مقتله؟".

كانت أجوبتها جاهزة كأنّها تنتظر الأسئلة: "لا أعرف، قصدتُ اللّحام في ساحة البلدة، ثمّ عرّجتُ على قريبة لي، ولمّا عدتُ، لم أجد زكريا في البيت، ليته تأخّر قليلاً، ربّما تغيّر قدره".

يشعر بديع المتخرّج من صفوف الميليشيات، كما باتوا يسمّونها، أنّ له في شوارع العاصمة التي قاتل فيها ما ليس لغيره. بدأ مع توقُّف الأعمال الحربيّة وعودة الحياة الليليّة إلى العاصمة يركن سيّارات زبائن أحد المطاعم في الشوارع الخلفيّة مقابل بدل بسيط، ثمّ توسّع نفوذه ليصبح مشرفاً على نظام كامل من "الفاليه باركينغ". يشغّل عشرات الشبّان في حيّ الملاهي المزدهر، ويبيع الزبائن الميسورين أسلحة فرديّة من آخر طراز: مسدّسات سميث أند ويسون يتباهى بها الشبّان، أو حتّى بنادق أوتوماتيكيّة صغيرة من نوع بيريتّا، يحتاجونها للدفاع عن أنفسهم مع تكاثر أعمال الخطف والسّرقة ليلاً أو على الطرقات الجبليّة.

طلب منها كمال تكرار الاسم ليتسنّى له تسجيله على هاتفه.

"شربا القهوة هنا كما نفعل نحن الآن"، أضافت، "وتحادثا بالعموميّات، بديع يحكي في الواقع وزكريا يستمع. لا أنسى كيف كانت عمّتي راحيل تصدر أصواتاً، كم استاءت من وجود هذا الرجل، نعرفها، لديها حاسّة خاصّة بالبشر. لم تحبّه، لكنّه كان بشوشاً ومحترماً. بعد قليل غمز زكريا وانتقل معه إلى الغرفة وأقفلا الباب وراءهما".

– هل سمعتِ المحادثة؟

– ولم ينتهِ الأمر هنا، فاللوحة اختفت وأنتَ على علم باللوحة. لا تحاول التهرّب فأنا أعرف الكثير. نحن، بل أنت وحدك، أمام جريمة قتل عن سابق تصوّر وتصميم مع سرقة موصوفة! إذا كان حظّك جيّداً، تحصل على الأشغال الشاقّة المؤبّدة فقط، لأنّ الدولة لا تحبّذ الإعدام في الظروف التي يجتازها البلد.

لم يكن بديع بحاجة إلى كلّ هذا التهديد ليتعاون مع المحقّق. حاول إفراغ جعبته بكلّ صدق وبالتسلسل الزمنيّ: "في بداية الصيف، اتّصل بي الأبرص من باريس وتحادثنا قرابة نصف ساعة على الهاتف حتّى سخنت أذني. كان متحمّساً وأخبرني عن تلك اللوحة وثمنها وأنّه وجد لها زبوناً في باريس. طلب منّي الوصول إليها، قال لي عن زكريا إنّه في حالة صدمة نفسيّة ويمكن بسهولة التعامل معه...".

قاطعه قاضي التحقيق وأكمل فكرة الأبرص: "... أو إرغامه بالقوّة، وإذا عاند، تخلّصوا منه، لذلك زرته برفقة رجل آخر، أليس كذلك؟".

– أبداً، أبداً، لست في وارد ارتكاب جرائم. حاولت عند زيارته في بيته استدراجه لأرى اللوحة بعيني فقط، لأتأكّد من وجودها، لكنّه كان أذكى منّي، كان حزيناً لكنّه لم يكن ساذجاً، طلب أن يرى المال أوّلاً. مليونا دولار،

الاستجواب بنشاف وقساوة ليضع الشّاهد في مواجهة الحقيقة. أفهم بديع فور دخوله أنّ وضعه لا يسمح له برفض التعاون مع التحقيق. الأجهزة تعرف أنّه يتاجر بالأسلحة وبممنوعات أخرى في الملاهي الليليّة، ومن السّهل ملاحقته وسجنه ويجري تحضير شهود لتجريمه.

بنيتُه قويّة، شعره أبيض وشارباه أسودان. وعدَ بالإفصاح عن كلّ ما يعرف. ينظر إليه كمال أبو خالد ليكتشف القاتل فيه.

– من هو زكريا مبارك؟

بدأ متردّداً، ذكر خدمة طلبها منه صديق قديم مُقيم في باريس.

نظر المحقّق إلى ورقة أمامه: "الأبرص؟".

– نعم، كنّا في مجموعة واحدة نحمي سوق الذهب في الوسط التجاريَ مع بداية اندلاع الاشتباكات في منتصف السبعينيات.

– وما هي الخدمة؟

– أن أعطي زكريا مبارك مسدّساً جديداً بناء على طلبه. أوصلته إليه في بلدته، وهذا كلّ ما حدث بيننا.

– كلا، هذا ليس كلّ ما حدث بينكما، حدث أمر آخر، فالرجل وُجد مقتولاً في جوار بلدته قبل أيّام.

اعتمد الصّراخ المسرحيَ، فاتّسعت عينا بديع ولم تبدُ المفاجأة على وجهه مصطنعة.

تدمع عيناها من جديد.

لا ينقاد وراءها، يدخل غرفة زكريا ويغلق الباب وراءه أيضاً.

الغرفة مرتّبة، زكريا معتاد السكن وحده. سرير وخزانة وطاولة وكرسيّ وحقيبتان؛ اقتصاد غرف الفنادق. رفع القاضي الفراش ونظر تحته فوجد ملصقات أفلام قديمة. انحنى تحت السرير، فتح حقيبتي السفر وخزانة الثياب وجواريرها، فلم يلفت نظره سوى قبّعتين رجّاليّتين، ومجموعة من زجاجات النبيذ، وذكريات نسائيّة، وعرائس، وبينوكيو من الخشب الملوّن، ودبّ كبير من القماش الزهريّ. وقف وسط الغرفة وجال بنظره مرّة أخيرة، فرأى على طاولة الليل في جوار السّرير كتاباً وفوقه رسالة وإلى جانبهما قارورة زجاجيّة داكنة مكتوب عليها "ماري". تذكّر أنّ اسم ماري وردَ في إحدى الرسائل النصّية. سأل مرتا عند خروجه مَن تكون ماري، فقالت إنّها لا تعرف وإنّ شقيقها أُغرم على حدّ علمها بالكثيرات من النساء. حمل معه الكتاب والرسالة وترك القارورة فوق الطاولة. لن يجد ما يهمّه غير ذلك، ولن يجد "عازف الكمان الأزرق"...

فور عودته إلى مكتبه، طلب قاضي التحقيق من الشّرطة القضائيّة الاستدلال إلى بديع مخلوف. يفضّل

وحده السّؤال الأخير كان مُحرِجاً. بعد تأمَل كتب بديع: "لا أدري، وأنا سعيد الآن لأنّه لم يتجاوب معي".

بدت الإجابة صادقة في نظر كمال أبو خالد الذي لن يتخلّى عن اعتبار اللوحة هي الدّافع للجريمة. وقبل أن يترك المكتب، انتبه إلى الكتاب والرسالة فحملهما إلى بيته. النّهار طويل ومُتعِب، وعندما تمدّد أمام التلفاز يداعب البولدوغ، وهي الوضعيّة التي تشعره بالثقة رغم اهتزاز الأدلّة، نظر إلى عنوان الكتاب: **عصفور من الشرق** لتوفيق الحكيم، وقرأ فيه صفحتين كاد يغفو بعدهما قبل أن يكتشف في الرسالة مفاجأة جديدة يفترض أن تعيد الأمور إلى بدايتها:

الصّديق العزيز زكريا،

فاتني قطار التقدّم التكنولوجيّ فلم أدخل عالم الرّسائل الإلكترونيّة وما زلت أفضّل الكتابة باليد، بالقلم والورق اللذين أختارهما. أحفظ عن مرورك في "دوّار الشمس" ذكرى طيّبة، وكذلك يحفظ لك الودّ جميع العاملين هنا. لكَ سلام خاصّ من جان باتيست. الواقع أنّ السيدة ماتيلد وهي لا تزال بصحّة جيدة منذ نجاح علاجها، أعطتني عنوانك البريديّ في لبنان وطلبت مني أن أكتب إليك هذه الأسطر التي أرجو ألّا تتسبّب لك في صدمة كبيرة. بداية، ربّما تكون علّقت لوحة شاغال في

على بعد خمسة أمتار وأودت بصديق له، وحيد أهله، في العشرين من عمره. لا يريد العودة إلى المشكلات، لديه عائلة جميلة، يبني له بيتاً في الجبل وله ابنة ستدخل الجامعة لتدرس الحقوق في أيلول المقبل، وتجارة المسدّسات التي يقوم عليها تجري بعلم مكتب "الأمن الوطنيّ"، فهو يبلغهم عن كلّ قطعة واسم كلّ شارٍ.

– لا أريد السجن.

توقّف قاضي التحقيق عن الإصغاء، لا يحبّ الانجرار وراء المشاعر، فاستدعى كاتباً ليسجّل أجوبة بديع على مجموعة من الأسئلة:

- اسم الأبرص الكامل ومكان ولادته ومهنته واحتمال تنفيذه في باريس أعمالاً غير شرعيّة.

- ماركة المسدّس الذي أعطيته لزكريا وكيفيّة حصولك عليه.

- أماكن وجودك يوم الأحد الذي وقعت فيه الجريمة خصوصاً ما بعد الظهر، وذكرُ أسماء شهود ليسوا من أقربائك يؤكّدون ذلك.

- هل يمكن، في رأيكَ، أن يكون الأبرص كلّف شخصاً غيرك المهمّة؟

- لو وافق زكريا مبارك أن يعرض عليك لوحة شاغال، فكيف كنتَ ستتصرّف؟

بمليوني دولار؟ لم يُرسل الأبرص دولاراً واحداً، وحتّى اليوم لم أستردّ منه ثمن المسدّس الذي أعطيته لزكريا. لكنّه عاود الاتّصال بي من باريس ليقول إنّ بإمكاننا تقاسم ثروة كبيرة جدّاً إنْ حصلنا على هذه اللوحة، وإنّ خبيراً فرنسيّاً أكّد له قيمتها الباهظة، فكنتُ أتكلّم مع زكريا مُدّعياً أنّ الأبرص زوّدني بالمال ولم يبقَ أمامنا سوى المقايضة. بقي مصرّاً على رؤية المال أوّلاً، وبعد مدة توقّف عن الردّ على مكالماتي؛ ربّما شعر أنّنا لن ندفع له شيئاً، لم يكن غبيّاً.

– مَن قتله؟

يبذل بديع جهداً واضحاً لقول الحقيقة بتفاصيلها قبل أن يسأل: "متى قُتل؟".

– يوم الأحد قبل عشرة أيّام.

– اتّصلتُ به مرّتين أو ثلاثاً في ذلك اليوم ولم يجب، وحتّى أمس بقيتُ أحاول التحدّث معه ويمكنك التأكّد من ذلك من هاتفي أو هاتفه.

لم يقابله كمال أبو خالد بملاطفة: "وإن تأكّدتُ، هل هذا دليلك للبراءة؟".

وضع بديع رأسه بين يديه وانحنى يفكّر، ولمّا رفع رأسه، كانت عيناه تدمعان، فأخبر القاضي أنّه نجا من الحرب. نجا بأعجوبة في أحد الاشتباكات على محور شارع بشارة الخوري. انفجرت قذيفة مُضادّة للدّروع

لا يمكنه التراجع فالعيون شاخصة فيه والمدّعي العام يعوّل عليه. كان يستعيد تفاصيل التحقيق عندما ورد في ذهنه فجأة آخر "فصول" مرتا مبارك وهو خارج إلى صحن الدّار بعد إقفاله باب غرفة زكريا حاملاً الكتاب والرسالة ومحذّراً مرتا من الدخول إليها لأنّها تخدم التحقيق، وحيث كانت راحيل تتململ فوق كنبتها وتكرّر دون توقف: "دروز، دروز، دروز...".

فنظر إلى مرتا التي تطوّعت للشرح: "تحبّ أبناء شقيقها يونس وتريد تبرئتهم من مقتل زكريا!".

ضاق كمال ذرعاً بمرتا فرفع لهجته: "لكن ماذا تقول الآن؟".

– تُلمّح إلى أنّ الدروز...

– مَن؟

– الدروز، آل حمدان... هم الذين قتلوا ابن أخيها.

وأضافت من عندها: "بسبب كرم المحموديّة، قصّة قديمة جداً، بدأت قبل 150 سنة وأكثر".

كاد يصرخ في وجه مرتا لِما تُحدِثه من إرباك كلّما تكلّمت، ورفض للوهلة الأولى ولوج الباب الجديد الذي فتحته هي وعمتها الخرفة، لكنّ الرسالة القادمة من جنوب فرنسا أرغمته على التوغّل في كلّ الاتّجاهات.

سان بول دو فانس، 15 آب

وفق ختم البريد وصلت الرسالة إلى البلدة قبل مقتل زكريا مبارك بشهر، أي إنّ عبورها البحر المتوسط استغرق ثلاثة أسابيع، وصدَعت نظرية كمال أبو خالد حول مقتل زكريا مبارك من دون أن تنال من عزيمته. عليه العثور على هذه اللوحة أو بالأحرى على نسختها المزوّرة ليتمكّن من تركيب صورة مكتملة للأحداث وألا يكتفي بادّعاء البراءة من بديع مخلوف الذي قد يكون حاذقاً في لعب الأدوار. إنّه رجل مُجرِّب "لم يُولد البارحة"، جاور الموت فهانت عليه الحياة. وقد يكون الأبرص أرسل بديلاً عن بديع ليقتل زكريا مبارك، استدرجه إلى مطلّ الصنوبر للمقايضة واستولى على لوحة مارك شاغال الموعودة من دون أن يعطيه المال وقبل أن يعرف أنّها لا تساوي شيئاً لأنه لم يقرأ الرسالة بطبيعة الحال، وإنّ غياب هديّة ماتيلد لاغرانج يُبقي هذه الفرضيّة قائمة. وقبل ذلك كلّه، لازمت كمال أبو خالد شكوك في صحّة رسالة غيدوني، بوّاب الليل في الفندق الفرنسيّ، وفي كيفيّة وصولها إلى تلّ صفرا ولم يستثنِ إمكانيّة اعتبارها خدعة إضافيّة، وثيقة مزوّرة هي أيضاً، في لعبة الأكاذيب التي تديرها المرأة الفرنسيّة صاحبة الفندق والتي لم يجد لها صورة في هاتف زكريا.

غرفتك وتتمتّع بمشاهدتها وهذا أفضل ما يجدر بك فعله، أو ربّما بعتها وهنا تكمن المشكلة لأنّه عليك أن تعلم أنّ "عازف الكمان الأزرق" لوحة مزوّرة على يد رسّام موهوب وكذلك شهادة الأصالة مزوّرة أيضاً، وأنّ السيّدة ماتيلد لا تعرف مارك شاغال ولم تطأ قدمه مرّة فندق "دوّار الشمس". في المختصر، كان ذلك كلّه امتحاناً لك ولمشاعرك، وهي أحبّت أن تكون خيانتك لها مقابل مبلغ محترم من المال وليس وعداً بالقليل، فاللوحة التي أخذتّها وأنا رأيتك تحملها مع حقائبك قد يتجاوز ثمنها لو كانت حقيقيّة عشرين مليون دولار أميركيّ. وهي لجأت إلى الامتحان نفسه عن طريق لوحة لماتيس وأخرى لنيكولا دو ستال مع رجلين آخرين لم يقاوما التجربة، وستمضي ماتيلد باقي أيّامها مع مزوّر اللوحات الذي وجدته أكثر "أصالة" من عشّاقها المُتوارين تحت جنح الظلام.

مع خالص تحيّاتي والأسف من ماتيلد التي تُخبركَ أنّ إصابتها باللوكيميا كانت حقيقيّة.

التوقيع:

جيروم غيدوني

حارس الليل في فندق "دوّار الشمس"

الرهبنة المريميّة. صار قلبها يضرب كلّما لمحته في البلدة أو في بستان المحموديّة حيث كان يعمل مع والدها في موسم القزّ ويتعلّم مهنة الخياطة في سائر شهور السنة. أقنعت أمّها التي تشاورت مع أبيها، فوافق واتّفق الجميع على عقد الزواج يوم عيد القدّيسيْن بطرس وبولس.

صارت بهيّة تعدّ الأيام وهي تحضّر لعرسها جهازاً من شغل يديها، لكن ما إن دخل أيّار، حتّى خرج الأهالي على صراخ وجلبة فوجدوا فلاحين يحملون جثّة شابّ من البلدة قُتل عمداً في سكّة الكرّوسة إلى الشام وكان مترافقاً مع ثلاثة من عسكر الدولة لم يحرّكوا ساكناً لمنع الدّروز من ضربه بالعصيّ ورميه بالحجارة حتّى الموت. صلّوا عليه ودفنوه، وجاء وفد من دروز البلدة في اليوم التالي استنكروا الحادثة وتبرّؤوا منها، واتّفقوا مع المسيحيّين على تجنب القتال فيما بينهم، ومَن يسعَ إلى المشكلات، فليلتحق بحزبه خارج تلّ صفرا. هدأت النفوس وعاد الناس إلى أشغالهم، وانشغلت بهيّة من جديد بتحضيرات عرسها، فجاء خبر الشيخ أبو سعيد حمدان وهو من وجهاء تلّ صفرا وصاحب بأس واقتدار. وقع في كمين نصبه له المسيحيّون ناحية حمّانا، وقيل أنّهم عذّبوه قبل قتله وأنه عُرف من بين مهاجميه شابّ من تلّ صفرا انقطعت أخباره فيما بعد ولم يُعرَف له من

ومن هذه الأصوات المكتومة الهامسة صوت بهيّة المراد. تمسك بيد ابنتها فيلومينا بعد أن تغسل لها شعرها وتجدّل لها ضفيرتيها وتمشي بها نزولاً صوب مطلّ الصنوبر، وتحكي. غالباً ما تحكي كأنّها تتكلّم وحدها. اختارت فيلومينا لتودِعَها فاجعة حياتها، رأت في عينَي ابنتها البكر ما لم ترَه في وجه شقيقتها البريئة الصّغرى كاترينا. صارت تروي على مسمعها، وفيلومينا مُصغية لا تزال في سنّ تعصى عليها فيها بعض المعاني لكن يتسرّب إلى قلبها الصغير حزنُ أمّها العميق وغضبها الذي لا تطفئه السّنون. تخبرها كيف كانت الأيّام حلوة والدّنيا تنعم عليهم بألف خير، يعيشون في بحبوحة لأنّ والدها كان شريكاً عند آل أبي نكد في كرم المحموديّة، هذا "الذي ترينه أمامكِ هناك وتصل حدوده إلى قعر الوادي". اقتلع أشجار الزّيتون الدّهريّة وغرس بدلاً منها أشجار التّوت لتربية دود القزّ. كانت صناعة الحرير رائجة، وبهيّة في عمر الزواج، والأقارب والجيران يمدحون جمالها فسهرَ في بيتهم مرّتين شابّ من إحدى القرى القريبة يقول الزّجل ويلبس صدريّة مقصّبة وكوفيّة حمراء من الحرير الخالص، صاحب نخوة وأخلاق. انتظرها بعد أيّام على طريق الفرن ليرافقها بضع خطوات ويبلغها بكلّ جدّية واقتضاب أنّها إذا لم تقبل الزواج به، فسيدخل إلى

11

جاء في الصّفحة الرابعة والثلاثين من كتاب **شاهد عيان على محنة جبل لبنان** وفيه أخبار حوادث سنة 1860 المشؤومة، طُبع في الإسكندريّة سنة 1892: "فسدت النيات والنفوس الأمّارة بالسّوء هبّت إلى شرب الدّماء في كلّ أنحاء البلاد ووصلت الفتنة إلى قرية تلّ صفرا التي تقع على مسافة خمسة عشر ميلاً من بيروت إلى جهة الشرق وسكّانها من النّصارى والدروز، فوقع قتال بين أهلها ولم يكن مشهوداً لنصارى البلدة بالبأس وحبّ القتال، ومن بعدها سقط قتلى في العبّادية وعلى طريق زحله...". هذا كلّ شيء. تلك الكلمات العموميّة هي الأثر الوحيد المطبوع وحتّى المكتوب حول المَقتلة التي شهدتها بلدة زكريا مبارك قبل قرن ونصف القرن. لكنّ المزارعين، خصوصاً المسيحيّين الذين غلبوا على أمرهم آنذاك، تولّوا نقل فصول النزاع شفهيّاً إلى أبنائهم جيلاً بعد جيل، أصوات من قلب المأساة تشهد على عذابات فرديّة لا يحفل بها المؤرّخون المنكبّون على رواية "إدارة" الأحداث أكثر من تدوين تفاصيل الأحداث نفسها.

أعرف إلى أين حملاهما، حاولت البكاء لكن
احترق الدّمع في عينيّ.

نزل العسكر الفرنسيّ من البوارج الحربيّة في شواطئ لبنان وعادت الحياة إلى طبيعتها في تلّ صفرا. بقيت بهيّة المراد من دون عزاء واعتقدت أمّها أنّها ستصاب بالجنون ولا دواء لها سوى الزواج، فعقدوا قرانها وهي شبه ممتنعة عن الكلام على شابّ فقير الحال رُزقت منه في أقلّ من سنتين بفيلومينا وكاترينا قبل أن يسقط في وادي الحجل حيث عُثر عليه ميّتاً بعد يومين. قاد إلى جثّته البغلُ الذي سقط عن ظهره وشرد محمّلاً فوق طاقته بأكياس الدّقيق على الطرُقات. قيل أنّ بهيّة المراد لم تبكِ زوجها لأنّها لم تعد قادرة على الحزن، ولم يلبسوها حتّى الأسود خوفاً على حياتها، وقيل أيضاً أنّ هناك مَن "كتب" لها، وحُكي عن امرأة تركمانيّة الأصل تزوّجت في البلدة كانت تحسد بهيّة على جمالها. وكأنّ تلك التي كتبت لها، كتبت أيضاً لابنتها فيلومينا التي تشبهها بقوامها وعينيها الواسعتين.

حصّتهما الجمال وسوء الطالع. لكن إذا كانت بهيّة استسلمت لحزنها، فإنّ فيلومينا غالبت القدر وغلبته. أُغرمت هي أيضاً بشابّ لا يملك من متاع الدنيا الكثير، يُطلب منه في فصل الشتاء تنقية الأشجار وتقليمها،

ثابتاً لا يهتزّ، فتكمل وهي تضمّ ابنتها إلى صدرها:

صرتُ وحدي مع والدي وخطيبي في كرم التوت. كان هواء البحر بارداً في ذلك الصباح، أوّل مرة قبّلت فيها خطيبي كان ميّتاً مرمياً على الأرض، وقف في وجههم وهو أعزل من أيّ سلاح، رفض ترك والدي وحده. عانقتُ والدي الذي لم يعانقني مرّة في حياته. تقول أمّي إنّني كنت المفضّلة لديه، لا ينام طوال الليل إذا ارتفعت حرارتي قليلاً لكنّه كان يخجل من ضمّي. صرتُ أدبدب على ركبتيّ وأكدش التراب، واعتقدتُ أنّني سأموت أيضاً، لا، بل رغبتُ في الموت. صرتُ أمرّغ وجهي بالوحل. مدّدت أبي على ظهره، وجهه إلى السماء، وكذلك فعلتُ بخطيبي وشبكتُ يدَي كلّ منهما على صدره كما أتصوّر الملائكة في السماء، وافترشتُ الأرض بينهما ونمت على ظهري مثلهما. أذكر أنّني سمعتُ غناء الحساسين في تلك اللحظة وغبتُ عن الوعي. وصلوا إلينا قرابة الظهر، حملوني وأجلسوني في فيء شجرة وفمي ممتلئ بالوحل، لم أرَ والدي وخطيبي، لم

ذلك الحين مُستقَرّ. لم يُبدِ الدروز ردّ فعل فوريّ، بل انتظروا حتّى وصل رسلهم إلى أقاربهم وأنصارهم في قرى الجوار، وتجمّعوا خارج البلدة في الصّباح قبل أن يقرع جرس الكنيسة موعد القدّاس الأوّل وهاجموا الحارة المسيحيّة وبدؤوا إحراق البيوت والأملاك. تمشي أمامهم نايفة أخت الشيخ أبو سعيد وهي تحورب طلباً للثأر.

خرجت بهيّة حافية القدمين خائفة على أبيها وعلى خطيبها اللذين كانا قد قصدا الكرم فجراً. ثلاثة أو أربعة من الدّروز يمتطون الجياد في حين أن الباقين يهاجمون سيراً على الأقدام، فركضت تسابقهم إلى الكرم وحاولت الوقوف في وجههم وتصرخ بهم: "لم نقاتلكم ونريد السّلام فاعفوا عنّا"، لكنّ أحد الفرسان وجّه الجواد نحوها وكاد يدهسها فوقعت أرضاً على حافة الطريق. رفض والدها وخطيبها الهرب كما فعل سائر المسيحيّين الذين لم يكونوا يوازرون بعضهم بعضاً وكانوا مشتّتين من دون قيادة، وما إن صارا على مرمى بنادق الدروز، حتّى أُطلقت عليهما النّار من جهات عدّة، فلم تترك لهما فرصة للنّجاة، وسقطا وسط بستان شجر التّوت، واختفى المهاجمون جميعهم بلمح البصر.

كانت عندما تصل إلى هذه اللحظة من روايتها

في هذه الأثناء، قرّر مسعود مبارك، زوج فيلومينا، الهرب، فارتدى سرواله الأسود المقصّب النّظيف وقميصه الأبيض والجزمة العالية، وهي المتاع الثمين الوحيد الذي ورثه عن والده، ومشى والمقصّ في شملته كأنّه في طريقه إلى تقليم أشجار أحد البساتين. مشى وفُقد أثره إلى الأبد، وكان صموتاً لم يُودع سرّ رحيله المباغت أحداً. لم تتأخّر بهيّة المراد، والدة فيلومينا في اللحاق بمَن ذهبوا بعد أن أُصيبت في سنواتها الأخيرة بعجز عن النّطق دخلت معه إلى نفسها ولم تخرج، فتوفّيت قبل ولادة حفيدها جبرائيل بأيّام معدودة.

أدركت فيلومينا أنّها إذا بقيت وسط أهلها المنكسرين، لا حول لهم ولا قوّة، وفي جوار أقارب زوجها الذين لم يهتمّوا كثيراً لأمرها، فلن تلقى من الحياة كفافاً ولا فرحة. قرّرت ذات صباح وهي تتأمّل ابنها يدبدب على ركبتيه، يحاول مناداتها ويتمسّك بها سعياً إلى الوقوف على قدميه، قرّرت مقاومة الموت الذي يطاردها وإزاحة كلّ هذا الأسى عن كاهلها. ومن دون أن تنظر صوب البحر الذي كانت تحجبه في هذه الأثناء غمامة صباحيّة بيضاء، عرفت أن ليس أمامها سوى الرّحيل إلى البعيد، وكان شائعاً في ذلك الأوان السّفر إلى أميركا وللنساء وحدهنّ أيضاً، فسافرت.

أبي نكد مع شريك مسيحيّ بدأ ينصبها أنواعاً مختلفة من الأشجار التي قامت بسرعة، بينما يؤمّن عمّاله الريّ والفلاحة، ووعد نفسه ببداية موسم العطاء بعد ثلاث سنوات. وفي فصل الربيع المنتظر، هبّ هواء خمسينيّ ساخن لم تعرفه يوماً هذه الجهات، وقيل أنّه قادم من الصحراء الليبيّة البعيدة، فهرّ الزّهر وضرب الدّود الثمر والأغصان التي تحوّلت يباساً أسود وأودى في أقلّ من أسبوع بمجهود سنوات من العمل الدّؤوب. حضر جميع أهالي البلدة يعاينون كارثة لم يروا لها مثيلاً في حياتهم ولم يدركوا لها سبباً. اشتكى المرابع أمره إلى آل أبي نكد فأشفقوا عليه واسترجعوا الكرم منه من دون بند جزاء. تكرّر الفصل بعد سنوات وبهيّة تنظر إلى السّماء وتتمتم قائلة: "كبير أنت يا الله!". تقدّم شريك آخر مقتنع أنّ العيب ليس في الأرض بل إنّ سلفه لم يُحسن العناية بها وبالزّرع. نصب المحموديّة عنباً وسهر عليها فلاحة وريّاً وتقليماً، حتّى جاء برد قارص ومطر تلاه جليد صباحيّ أحرق جفنات المرواح والعبيدي وقضى على آمال الشريك الثاني. لم يعد من بعدها آل نكد يجدون من يستثمر لهم الأرض، لا مرابعاً ولا مغارساً. أهملوها وكبر فيها الهيش، وتكاثرت الأفاعي والخلد والتّوت البري الذي يخشى النّاس أكله، وصار الأهل يُوعزون إلى الأولاد تجنب الاقتراب منها.

وفي بداية فصل الربيع تطعيم الكرز والتفّاح، ويجني مردوداً بسيطاً لا يكفيه لإعالة نفسه وزوجته. قصده يوماً وكيل آل أبو نكد طالباً منه تنظيف الكرم وزراعته لكنّ فيلومينا التي عاد إليها في لحظة صوتُ أمّها المفجوع توسّلت إليه ألا يفعل وألا يقترب من المحموديّة، وعرضت عليه التعويض من مدّخراتها البسيطة وبيع إسوارتين من الذّهب كانتا لأمّها.

وقد عرفت المحموديّة حكاية غريبة استمرّت حتّى أيّامنا، وبدأت مع مقتل جدّ فيلومينا وخطيب والدتها ودفنهما سرّاً في أسفل الكرم لأنّ الوصول إلى مقبرة المسيحيّين في البلدة كان متعذّراً آنذاك بسبب وجود الدّروز المسلّحين في ناحيتها، وقد أُخفي الأمر عن بهيّة التي بقيت تعتقد أنّهما يرقدان فوق، في المقبرة.

عاقبت السّلطات المشايخ النكديّين لمشاركتهم في الهجمات وأعمال القتل، فصادرت أملاكهم ومنها كرم المحموديّة البالغة مساحته مئة دونم. بقي مهملاً لا يدخله أحد لسنوات، حتّى قرّرت "النظارة الجليلة" في متصرفيّة جبل لبنان إعادة الأملاك الخاصّة إلى أصحابها، وأُعيد العمل لمصلحتهم بعقود الشّراكة. ضرب اليباس الكرم وأقفل معمل الحرير القريب فلم يبقَ سوى اقتلاع أشجار التّوت وبيع حطبها الرّخيص. تلى ذلك إبرام عقد مغارسة لخمسة عشر عاماً وقّعه ورثة سلمان

شكت عشتروت ما حلّ بها إلى كبير الآلهة الذي حكم على الأرض باليباس، باستثناء زهرة الدم الحمراء تفرش وجهها في شهر الربيع الأوّل. وتبيّن فيما بعد أنّ بارتيليمي، مع انتقاله إلى مواقع أثريّة أخرى، راح يكرّر الرواية الميتولوجيّة التي لاقت رواجاً كبيراً إلى الشمال من بيروت، وساد الاعتقاد أنّ الاحمرار الذي يعكّر كلّ سنة مياه أحد الأنهر هناك ليس سوى دم الصيّاد الذي قتلته الطريدة.

والأخبار من هذا الصّنف الميتولوجيّ نشرها عالم آثار مستشرق يُدعى أناتول بارتيليمي جاء إلى لبنان مع الجيش الفرنسيّ. اصطحب معه ابنته، واستأجر بيتاً في تلّ صفرا، وبدأ الحفر حول المعبد الرومانيّ في البلدة الذي قرأ عنه في كتاب رحّالة ألمانيّ أحصى في القرن السابق آثار سوريا ولبنان وفلسطين وغرائبها. وقيل أنّ بارتيليمي أخرج ليلاً وبعيداً عن الأنظار تمثالاً من مرمر أبيض لامرأة جميلة مقطوعة الذراعين، ورأس قيصر اعتقد أنّه كراكالا المعروف بأنطونينوس، وأوانيَ وجراراً كان يُجمع فيها رماد الموتى بعد إحراقهم، وشحن ما وجده إلى مرسيليا في عهدة الجيش الفرنسيّ. يعرف العربيّة ويتحادث مع القرويّين، يسألهم عمّا يعرفونه من مرويّات على لسان أهلهم وأجدادهم عن الهيكل الرومانيّ فلا يشفون غليله. يسأله البعض لاعتقادهم أنه كلّي المعرفة عن رأيه في عقم أرض المحموديّة، فاخترع لهم قصّة لأنّه مقتنع أنّ أهل الشرق يحبّون القصص، عن حبيب عشتروت الذي كان صيّاداً هاجمه خنزير برّي بينما كان يحمل قوسه ونشّابه على هذا المنحدر الذي يسمّونه المحمودية وعضّه في رجله فنزف طويلاً قبل أن يموت. وليست الأزهار التي

وقعت في غيابها الحرب الكبرى، ونزل الضّيق والفاقة بالناس وأرعبتهم أخبار الموت جوعاً التي ترد من الشمال، من جهات بلاد جبيل والبترون. لا تزال المحموديّة هشيراً لا تعطي حبّة ثمار واحدة، فتعاون أهل البلدة على فلاحتها وزراعتها قمحاً في الخريف على أمل أن تسدّ حاجتهم من الخبز. وحدها كاترينا التي ربّت جبرائيل ابن شقيقتها فيلومينا مع أولادها تعرف أن لا زرع سينبت في المحموديّة لأنّ الدم ثقيل ولأنّ هناك في الدنيا عدالة إلهيّة. وبالفعل، عندما كبرت السنابل وغطّى خضار الربيع الطّالع هذه المساحة الشّاسعة، بدأت تصل الأخبار عن الجراد الزاحف على سفوح جبل لبنان، ولم يطل الانتظار، فإذا به يغطّي السماء ويحجب نور الشّمس ويقضي على الأخضر واليابس في يوم أو يومين. عادت المحموديّة كرماً قاحلاً، وهرب الكثير من الدّروز إلى أقاربهم في بلاد حوران، وحاول المسيحيّون تدبُّر أمورهم رغم الضّيق وانتشار مرض التيفوس.

يئس أصحاب المحموديّة منها بعد انتهاء الحرب ولم يجدوا مَن يقبل مشاركتهم استثمارها. ذاع صيتها في القرى المجاورة، وحيكت حولها الأخبار من كلّ نوع، أنّ أرضها فاسدة والغضب يلحق بها من الإلهة عشتروت التي شُيّد المعبد الروماني إكراماً لها.

فيلومينا عن مطلبها الحقيقيّ: "كرم المحموديّة، أليس وارداً بيعُه؟".

صُدم السمسار: "إنّها أرض كبيرة جدّاً، أكثر من مئة دونم، ما لكِ ولها؟".

– إنْ يكن!

– ثمّ إنّها عديمة المردود، مهجورة من قبل أن أولد...

أعطته فيلومينا مقدّماً عن بدل أتعابه، وأعلنت استعدادها لدفع ثمن الأرض ذهباً، ليرات إنكليزيّة، فراح الرجل يسعى بكلّ قوّته وحنكته معتبراً أنّ الناس أجناس وما لا تتمنّاه لنفسك يحلو في عين غيرك. غاب أيّاماً يستقصي فاكتشف أنّ الشيخ سلمان أبي نكد، صاحب الأرض إبّان حوادث 1860، وخوفاً من تقسيم الملكيّة كتبَ المحموديّة كاملة لابنه البكر، وهذا ما يسمح له به شرع طائفته. مشى هذا الابن على مذهب والده فمنح الأرض لسلمان، الصبيّ الأكبر سنّاً بين أبنائه. وحاول سلمان الجديد، القليل الحكمة والنشاط، بيعها مراراً في السّنوات المنصرمة بسعر بخس لكنّ والدته كانت تنهيه عن ذلك طالما هي على قيد الحياة. وجده السمسار بعد شهر على دفنه أمّه وحيداً أعزب لا يدلّ مظهره وأثاث بيته على أدنى رفاهيّة، ففاوضه على ثمنها. طلب سلمان في محاولة لرفع السّعر ضعف ما عُرض عليه في آخر مساومة، فوافقت فيلومينا من دون

سيّدة تدعى أليزابيت ديميترييف تتناول هموم الثورة وتنتهي بالتعبير عن مشاعر الحبّ الملتهبة. شارك لاغرانج في كومونة باريس، وأطلق النار من وراء المتاريس، ثمَ نجح في الفرار خارج العاصمة عند اقتحامها، ومن بعدها أبحر إلى نيويورك مع دخول الجنود الأحياء المتمرّدة وإعدام رفاق له.

أدركت فيلومينا أمام هذه الثروة أنّه بات بإمكانها العودة إلى موطنها وبناء بيت لها ولابنها في تلّ صفرا وشراء المحموديّة. تراودها الفكرة كلّما لاحت لها بلدتها وعادت إليها صورة أمَها بهيّة المراد الممدّدة في الكرم بين والدها وخطيبها تسمع زقزقة الحساسين الصباحيّة قبل أن تغيب عن الوعي.

هكذا، بعد رجوعها، وفيما كانت تسهر على بناء بيت أرادته أجمل وأكبر بيت في البلدة، بدأت فيلومينا تسأل عن الأراضي القابلة للبيع في الجوار، فاشتمّ أحد السماسرة رائحة المال فقصدها يعرض خدماته. سرد عليها ما في جعبته، وكالة "بيع بتّ" من جرجس الباني المهاجر إلى المكسيك. كلا، لن تشتري مُلكاً لمسيحيّ. بستان الشَرفة ستة دونمات مشجّر. لا، إنّه صغير. أرض كبيرة لآل نبهان لكن الورثة فيها كثُر ومن الصّعب تحريرها... طال الكلام واستُنفدت الخيارات، فأفصحت

12

رافقت فيلومينا مضيفها في بروكلين، نيويورك، وشريكها في تجارة الذّخائر الشرقيّة الوهميّة، لاغرانج، إلى مقبرة غرينوود حيث كان قد حجز لنفسه مساحة بنى فوقها قبراً بسيطاً من دون رموز مسيحيّة وطلب أن يكتب على شاهده: "هنا يرقد ميشال لاغرانج، عاش حرّاً طليقاً، لا أهل له ولا بلاد". مشت وراءه ومشى معها زوجان أيرلنديّان من أصدقائه فقط. كان والداه كاثوليّكيّين، لكنّه كان ملحداً مقتنعاً، ورغم ذلك، صلّى عليه قسّيس بروتستانتيّ. رفع إصبعه في وجه مشيّعيه الثلاثة بتحذير المسيح: "كونوا متيقّظين لأنّكم لا تعرفون متى يأتي ربّ البيت ويجدكم نياماً". نقدته فيلومينا بضعة دولارات، اعترض على ضآلتها فزادتها وعادت إلى البيت. دخلت إلى غرفة لاغرانج وفتحت للمرّة الأولى الخزانة التي أمّنها على مفتاحها في أيّام مرضه الأخير ولم تقترب منها طالما بقي على قيد الحياة. وجدت الكثير من الذّهب والمجوهرات، ودولارات ورقيّة، وأعداداً من جريدة "صرخة الشّعب" بالفرنسيّة، وكتُب لبرودون وأوغوست بلانكي حول المساواة والمجتمع المثاليّ، وكذلك رسائل متبادلة له مع

ما يسدّ به جوعه فوبّخ زوجته ومشى نحو بستانه حيث سند ظهره على جذع شجرة ينتظر مرور بغلين قادمين من كرم المحموديّة محمّلين بصناديق المشمش والخوخ، فوقف وسط الطريق وتصدّى للمكاريّ بصوت جافٍ: "لا تسلك هذا الدّرب بعد اليوم، سأسمح لك بالعبور هذه المرّة، أخبِر فيلومينا أن لا طريق لها في أرزاقنا!".

كان السمسار قد تفادى في حماسته، لإتمام البيع أو خوفاً من أن يتسبّب في عرقلة الصفقة، إبلاغ فيلومينا أنّ كرم المحموديّة محصور غرباً بوادي الحجل وجنوباً بمرتفع صخريّ وعر بينما تفصله عن الطريق العامّ في الجهتين الباقيتين أملاك لدروز البلدة، أو ربّما لم يعر ذلك صدقاً كبيرَ اهتمام لعلمه أنّه في تقاليد الأملاك في جبل لبنان يُسمَح من باب التساهل بالوصول إلى الأراضي المزروعة عبر طريق "رِجل" للمشاة أو طريق حافر للبغال والحمير لا تتجاوز المتر الواحد عرضاً.

أدّت مداخلات العقلاء في البلدة للسماح بنقل قطاف السنة وإرجاء إيجاد طريق للأرض المطوّقة إلى الموسم التالي، فتوفّيت فيلومينا في هذه الأثناء وكان يمكن اللجوء إلى القاضي الفرنسيّ في سراي بعبدا لتأمين حقّ المرور. لم يكترث جبرائيل مبارك للمسألة وأدار ظهره نهائيّاً للزراعة وهو يحلم بذهب أمّه الدفين بعد

ليبيعه للنّصارى. تداولوا فيما بينهم فتأكّد لهم أنَ المرأة العائدة من خلف البحار تنكأ جراحاً قديمة. فالحرب الكبرى، بما جرّته من مآسٍ على جبل لبنان، كانت كفيلة بمحو ما قبلها، لكنّ زوجة مسعود مبارك الذي لم يُدرَك له أثر حتّى الآن أمضتها في نيويورك بعيداً عن الأهوال. سمعت بالقليل من صداها ولم ترها بأمّ العين، وها هي تعود بعد انتهائها لتكمل، كما اعتقد المخضرمون من الدروز، عداوة لم تعد في بال أحد. شاهدوا بأنفسهم كيف أنّ الأرض التي بقيت جدباء أكثر من ستّين عاماً في رعاية أهلهم بدأت تعطي الثمار كأنّها تريد تعويض عقمها دفعة واحدة. وكما جاء الأهالي من قبل لمعاينة اليباس، صاروا يقصدونها في الربيع ليتأمّلوا كيف تتلألأ الأشجار ببياض الزهر الذي يملأ الأغصان ويفرش الأرض، وكيف تحوّلت المحموديّة إلى جنّة تحمّل الدوابّ قطافها من بداية الصيف إلى منتصف الخريف لتوصلها باكراً إلى سوق الخضار في بيروت. وفي حسابات سريعة، كانت الأرضستردّ ثمنها خلال ما لا يزيد عن عشرة مواسم.

لكنّ إبليس لم يكن يتعب من الرّقص حول هذا الكرم، فحصلت المناكفة الأولى مع أحد آل حمدان وربّما يكون من أحفاد الشيخ أبو سعيد نفسه الذي قُتل في حوادث 1860. استيقظ الرجل باكراً. لم يجد في البيت

نقاش خشية أن يغيّر النكدي رأيه. التقته مرّة واحدة، نقدته ليرات الذهب الموعودة، وسجّلت الأرض باسم ابن شقيقتها كاترينا لسبب لا يعرفه أحد غيرها.

بقي البيع سرّاً كتمه سلمان عن أقاربه، حتّى كلّفت فيلومينا مَن ينظّف الأرض ويفلحها ويغرس صليباً من خشب السنديان في المكان الذي قال لها كاهن البلدة، قبل أن تسافر إلى نيويورك، إنّ جدّها وخطيب أمّها دُفنا فيه خلسة. اعتقد بعض أهل البلدة أنّها تعلن "مسيحيّة" المحموديّة بعد أن أخذتها من أصحابها الدّروز. أعادت بناء ما تهدّم من الجلول وعملت على تدعيمها، ثمّ جاءت برجل ذكّرها بزوجها مسعود أمّنَ فلاحة الأرض، ونصبَ الكرم تفّاحاً أميركيّاً من نوع جديد، إضافة إلى الموشّح والسكّري والإجاص الكوشيا ورأس البغل والكرز بأنواعه والخوخ الشاميّ والسلطانيّ والرمّان الحلو واللوز وغيرها. كلّفت ابن شقيقتها كاترين السّهر على الكرم، وثقث بحساباته وسخث عليه من دون أن تخبره أنّ الأرض مسجّلة باسمه. كان مقتنعاً أنّ المُلك آيل بطبيعة الحال إلى ابن خالته الوحيد جبرائيل الذي اعتقد لسنوات أنّه شقيقه، والذي كان يزور الكرم كالغريب مؤكّداً قول أمّه عنه إنّه لا يحبّ الأرض.

اغتاظ أشقّاء سلمان أبي نكد وأقاربه عندما أُخبروا بالصفقة، فالكرم كُتب باسم الابن البكر ليحافظ عليه لا

وقال على مسمع من زوجته، وهو يرافق النكدي إلى باب البيت الخارجيّ، إنّه إذا نزل إلى بيروت، فسيُنفِق وحده المبلغ الذي اقترحه الرجل في ليلتين، وكان واضحاً أنّ المقصود ليلتين من العبث مع بنات الليل. رمش بعينه للرجل ثمّ أقفل النقاش بلهجة حازمة: "أمَي اشترث هذا الكرم ونحن نسيناه!".

بعد عقدين من الزمن على هذه المداولة السّريعة، ولمّا تخرّج إبراهيم بن جبرائيل مبارك في الجامعة مهندساً زراعيّاً بتقدير ممتاز، عادت العائلة إلى الكلام عن المحموديّة. أميلي، ابنة المدينة، هي التي أوحت إلى زوجها بالعودة إلى الكرم مرّة جديدة. يقصد الزوجان المحموديّة في عطلة نهاية الأسبوع سيراً على الأقدام، وترد عنهما الشّمس قبّعتان من الفلّين من النوع الذي كان يُعرَف به المبشَرون البيض في أفريقيا. يتناقشان حول انكشاف المكان للشّمس بصورة مستمرّة وفي خصائص التربة الصلصاليّة واحتمال الاكتفاء بمياه المطر في زراعة العنب. يمتحن إبراهيم المتخرّج حديثاً معلوماته في الميدان، وأميلي الرّقيقة تجد صخرة ملساء تجلس عليها وتطيل النظر إلى البعيد. عند عودتها إلى البيت، تذكر في المساء على صفحات دفترها كرم المحموديّة ضمن سلسلة من الصور المُستوحاة من تربيتها البروتستانتيّة التوراتيّة: "إنّها

جديد، بعد استراحة سنوات قليلة، لعنةُ اليباس الدهريّة وقال العارفون بأحوال الأرض إنّه بات من الصعب ريّها بغير مياه المطر، وإنّه لن تصلح فيها سوى الزراعات البعليّة وأوّلها العنب والتّين. جفنات العنب تبحث بنفسها عن الماء في عمق الأرض بينما التّين لا يحبّ الماء.

تُرك الكرم على حاله من جديد ولم يقترب منه أحد سوى كتيبة هندسة تابعة للجيش لم يُعرف كيف اهتدت في الصّيف الحارّ إلى المحموديّة لنصب أربع خيم فيها. رُفعت بين الخيم صارية للعلم اللبنانيّ، وبدأ الجنود أخذ القياسات وتحديد المواقع لأغراض عسكريّة غامضة، لكنّهم اضطرّوا في اليوم التالي إلى دقّ نفير الرحيل صباحاً وفكّ الخيم وتحميل ما أنزلوه بعد ليل لم ينم فيه أحد منهم بسبب القتال مع الزواحف على أنواعها والبعوض القارص والخوف من لسع العقارب. وفي كلّ عام، مع اقتراب موعد اعتدال الرّبيع وهبوب هواء صحراويّ ساخن، تشبّ فيها حرائق تأكل اليباس ويتعاون عليها الجيران إذا ما دفعتها الرّيح نحو بساتينهم ومنازلهم. في غضون ذلك، لم يتقدّم أحد لشرائها سوى ابن سلمان أبي نكد الذي عرض نصف السعر الذي اشترته به فيلومينا من والده قبل سنوات عدة متذرّعاً بجفاف نبعها. سخر منه جبرائيل مبارك

أن فكّ رموز رسالتها باللغة الإنكليزيّة، مفضّلاً مطاردة النساء والأرباح السهلة للمُراباة. انتقل ابن خالته كاترينا إلى بيروت لينخرط في الدّرك اللبنانيّ برتبة معاون في شرطة الأخلاق التي تتحرّى عن عمل الكباريهات وتنظّم نشاط بنات الهوى. صار الكرم من دون أهل من جديد. وبقدرة قادر وبصورة مفاجئة، اكتمل الخراب فجفّ نبع اليحمور الذي يروي المحموديّة وقد ذُكر على صحيفتها العقاريّة أنها تستفيد من مياهه. الحقيقة أنّه لم يجفّ بل اختفى تماماً عن سطح الأرض بين ليلة وضحاها في منتصف أيلول. خشي البعض أن يكون آل حمدان حوّلوا النبع الطّالع في أملاكهم معاقبة لفيلومينا، وهذا لم يكن من حقّهم. تبيّن بعد البحث أنّ الماء غارت ويمكن سماع خريرها عميقاً إثر تشقُّق في الأرض تكرّر حدوثُه في أماكن أخرى من خراج البلدة في أزمنة متباعدة. اعتقد خبراء أنّ ذلك ناجم عن وجود تلّ صفرا على خطّ الزلازل الذي يعبر جبل لبنان من أقصى جنوبه إلى شماله.

جفّت، إذاً، سواقي المحموديّة، وتسلل أحدهم ليلاً واقتلع الصليب في أسفل الكرم الذي لم تكن فيلومينا قد أفصحت لأحد عن سبب غرسه هناك. تكفّل الصبية وعابرو السّبيل بالتمتّع ما أعطته أشجارها من ثمر قليل في الموسم التالي على إهمالها. هكذا لاحقَتْها لسبب

13

في يوم أحد صيفيّ، وبعد أن أفرغ فرحاً أربعة كؤوس من العرق المثلّث مع الغداء، قاد إبراهيم مبارك سيّارته البيك أب الجديدة من طراز فورد وإلى جانبه زميل له في شركة "أغرونوميا" استضافه في تلّ صفرا خلال عطلة نهاية الأسبوع. صحبه بعد تناول الحلويّات والفواكه لزيارة كرم المحموديّة، وسلك طريق الحافر الترابيّة القديمة وهو فرِح بسيّارته المصمّمة للحقول والمنحدرات. كان منتشياً لا يُصغي إلى صديقه يحذّره من أنّ مشروع إنتاج النبيذ بحاجة إلى الكثير من المال لإطلاقه، وأنّ عشر سنوات ستنقضي قبل أن يدرّ على صاحبه ليرة واحدة. كذلك لم يُبديا اكتراثاً لوجود رجلين في البعيد واقفين في جوار شجرة حور حتّى عبرا إلى جانبهما وتطاير التراب من تحت إطارات البيك أب ولفّ الرجلين، فرمى أحدهما وهو يرتدي سترة رغم حرّ الصّيف السيّارة بحجر كسر زجاجها الخلفيّ. أوقف إبراهيم البيك أب وترجّل مع صديقه ليتواجها مع الرجلين الغاضبين من سحابة الغبار الكثيف، وأدرك إبراهيم بسرعة أنّهما من دروز البلدة ومن أصحاب الأراضي المجاورة، ناصيف ومحمود حمدان.

مستقبل لامع لها، إلى اليوم الذي عجزت فيه عن التنفّس فنقلوها إلى المستشفى وهي تُوصي مرتا التي رافقتها في سيّارة الإسعاف ألا تحزن عليها، قبل أن تسلم الروح جرّاء التهاب رئويّ حادّ.

أمضت سنوات قليلة مع حماتها التي لم يسمح لها القدر بأن تستريح طويلاً من وطأة زوجها جبرائيل فسارعت إلى اللحاق به. نامت ولم تستيقظ تاركة أميلي مع ولديها ومع راحيل. وكانت أميلي تعترف في دفترها أنّها تشعر بالقرب مع هذه المرأة المريضة أكثر من قربها مع الأصحّاء، وهي قادرة بالفعل على التفاهم معها، على تهدئتها إذا غضبت، تمسكها من يدها وتخرجها أحياناً إلى الشرفة لتستمتع بالهواء الطلق، تجالسها، تغنّي لها وتكلّمها كأنّها بكامل رشدها من دون أن تنتظر منها جواباً.

بقيت تتابع مع زوجها مشروع النبيذ الذي ظلّ طويلاً في طوره التحضيريّ بسبب تردّد إبراهيم وهي تشجّعه على استثمار المحموديّة، لكن لم يخبرها أحد أنّه رغم انقضاء أكثر من قرن من الزّمن على مقتلة 1860 وذهاب جيلين، إن لم يكن ثلاثة، منذ عودة فيلومينا منتصرة من الولايات المتحدة، فإنّ توارُث الأرض في هذه المطارح يُورث معه العداوات الكبيرة والصغيرة، فحدث بعد وقت قصير ما كان في الحسبان.

أجمل شرفة على المتوسّط، هنا زرع نوح جفنته الأولى التي نبتت تحت عرش الربّ بعد الطوفان، لا بدّ أنها ستعطي عنباً مشبعاً بدفء الشمس يُصنَع منه نبيذ عجائبيَ، لِم لا ونحن على بُعد أميال قصيرة من حيث صنع المسيح معجزته الأولى، من قانا الجليل؟".

خلافاً لشقيقه يونس المتلهّف لصخب الحياة، لم يترك إبراهيم بيت أهله القرويَ وكان يسرّب يوميّاً إلى تلّ صفرا من عمله في بيروت في شركة "أغرونوميا" للأدوية والموادّ الزراعيّة. رافقته أميلي في النزول والطلوع يوميّاً على مدى سنتين درّست خلالهما اللغة العربيّة في معهد "الأنترناشيونال كولدج"، لكن لمّا حملت بزكريا وكان ذلك في الربيع، لم تتصوّر أبداً أنّها قادرة على ترك طفلها في البيت فوق وحده أو برعاية شخص غيرها، أيّاً يكن، فأبلغت إدارة المدرسة أنّها لن تعود إلى التعليم في السنة المقبلة. منذ ذلك الحين، حبست ابنة مدير مطبعة الجامعة الأميركيّة في بيروت نفسها في بيت آل مبارك حتّى النهاية. كان يصعد للاطمئنان إليها مرّة أو مرّتين في العام أشقّاء جاؤوا من دمشق أو خالة عجوز نزحت من فلسطين، فيحارون في أمر خيارها العيش هنا مع القرويّات. يقلقهم شحوبها ويلفتهم وجود راحيل قبل أن يعودوا وقد أضاعوا صورة الشابّة المثقّفة التي كان والدها يراهن على

كرم المحموديّة أكثر صعوبة مع الحاجة إلى السيّارات في كلّ تنقّل. دربُ الدوابّ الترابيّة الضيّقة لم تعد تفي بالغرض. لذلك، وبسبب افتقاره أيضاً إلى الأموال اللازمة، صرف إبراهيم النظر نهائيّاً عن مشروع الكرمة والنبيذ وطاب له أن يستعيد مع أميلي حكاية غضب عشتروت وأسطورة شقائق النعمان، بينما عمد آل حمدان إلى تسوير أراضيهم تحاشياً لقيام طريق "الأمر الواقع" إلى كرم المحموديّة، التي قد يشرّعها القضاء لاحقاً.

مع الإهمال المتواصل للكرم، خُيّل إلى جيرانه أنه بات مُلكاً سائباً، فتشجّع أبُ عائلة فقير على زرع الجلول الواطئة منه، التي يصل إليها من الأسفل عبر وادي الحجل. زرعها خضاراً يتعب في ريّها وفي نقل المحصول إلى الطريق العامّ النّازل إلى بيروت حيث نصب خيمة صغيرة يصفّ أمامها الملفوف والخيار والبندورة والقرع واللوبياء، فتتوقّف السيّارات العابرة أحياناً وتشتري منه. وفي تحامُل لا يُصدَّق للأحداث، لاحقت هذا المسكين أيضاً لعنة المحموديّة عندما صدمت خيمته وصدمته شاحنة قادمة من سوريا فقدت كوابحها نزولاً فبعثرت خضاره ورمته نصف ميّت فوق الجرف وبقي ابنه الصغير الذي كان يحمل أكياس الخضار إلى سيّارات الزبائن سالماً بما يشبه الأعجوبة.

ساقه واكتشف الرجال الأربعة فجأة فداحة وتفاهة ما أقدموا عليه.

ذهبت سكرة إبراهيم، فنقل غريمَه الذي كان ينزف بغزارة إلى منزل طبيب مُقيم في البلدة حاول إيقاف الدم وتطهير الجرح، ثمّ حضر أقارب ناصيف وحملوه إلى المستشفى في بيروت. في هذه الأثناء، عاد إبراهيم إلى البيت وقرّر بالتشاور مع زوجته وزميله تسليم نفسه لمخفر الدّرك. أمر القاضي بسجنه احتياطيّاً في حبس الرمل حيث أمضى ثلاثة أشهر تحامل فيها على التجاور مع محكومين من الفئات الدّنيا مع الرّوائح المزعجة والنّوم في الصفّ على الكتف، في الوقت الذي اضطرّ فيه الأطبّاء إلى بتر ساق ناصيف حمدان. لكنّ المحكمة خفّفت عن إبراهيم الجرم كون المسدس يخصّ غريمه وهناك شاهدان أمكن التأكّد من تطابُق أقوالهما بأنّ اللجوء إلى التهديد بالقتل جاء من ناصيف. رأى القاضي أنّ ما أمضاه إبراهيم في السجن عقاب كافٍ، وحكم عليه بدفع تعويض ماليّ يحتاجه المُصاب إلى تركيب رجل اصطناعيّة. قال له محاميه إنّ بإمكانه الاعتراض على هذا القرار، لكنّ إبراهيم وافق على دفع التعويض توخّياً للتهدئة.

لم يبقَ لدى ناصيف حمدان وأهله سبب للثأر، لكنّ الضّغينة سكنت في النفوس من جديد وصار المرور إلى

– ألا يمكنكما التمهّل في القيادة؟ أعمانا الغبار...

– لم أكن مسرعاً وكان يمكنكما الابتعاد قليلاً.

لم ترق هذه الملاحظة لناصيف، صاحب السترة: "وبداية الأمر، من أين لكَ الحقّ في المرور من هنا؟".

– كنتُ ذاهباً إلى أرضي!

– وتمرّ في أرضي أنا من دون شور ولا دستور؟

علت اللهجة وساعد العرق في رفع نبرة إبراهيم المُسالِم عادةً وبدا محمود حمدان متضامناً مع ابن عمّه أكثر من زميل إبراهيم، الخبير الزراعيّ الطالع من المدينة، الذي وجد نفسه وسط عراك حاول عبثاً تهدئته. لكنّ الأيدي ارتفعت أمام الوجوه مهدِّدة، وبدأ سيل الشتائم ينهال وإبراهيم فاجأ صديقه بصموده في السّجال الذي تطوّر تلقائيّاً إلى تدافُع ثمّ تضارُب تمكّن فيه إبراهيم من رمي ناصيف أرضاً. نهض الأخير وعيناه غاضبتان ليشهر المسدّس الذي كان يخبّئه تحت سترته وليصوّبه نحو إبراهيم. بدلاً من الفرار أو الاحتماء، انقضّ والد زكريا على الرجل، وفي استرجاعه الأحداث، عندما روى العراك لزوجته أميلي، لم يعرف إبراهيم من أين جاءته هذه الشجاعة ليمسك من دون تفكير مهاجمه من يده ليبعد فوهة المسدّس أو يحاول انتزاعه منه.

سُجّل في المناطق المختلطة ارتفاع في عمليّات انتقال المُلكيّة إلى المسلمين. وكان يُعِدّ مع زملاء له مشروع قانون يحظّر انتقال المُلكيّات العقاريّة بين المسيحيّين والمسلمين باستثناء حالات خاصّة ينصّ عليها القانون مثل الزيجات المختلطة وحقّ الشفعة وما شابه، لكنّ الفكرة بقيت طبعاً في خيال أصحابها، فالقانون ما كان ليصمد أمام أوّل اعتراض. كانت مرتا معجبة بفصاحته، تُؤخَذ بحركات يديه ونبرة صوته فيفوتها غالباً مضمون كلامه.

المهمّ أنّه حصل من زكريا قبل سفره على وكالة غير محدودة بالزّمن تخوّله متابعة حقّ المرور لهذا العقار في غيابه. أمّا مرتا، فكان نصيبها الإحباط مرّة جديدة عندما علمت أنّه عقد قرانه على محامية من زملائه تعرّف إليها قبل شهر فقط في إحدى المحاكم وسحره فيها مزيج البلاغة والأنوثة. توقّفت مرتا عن لقائه ومساعدته في القضيّة التي عمل عليها بمثابرة طوال عقدين من الزمن ظهرت معهما خيوط الشّيب في رأسه وتخلّلهما الاجتياح الإسرائيليّ للبنان وعمليّات القتل والتهجير بين الدّروز والمسيحيّين، ما أوقف عمل المحاكم في تلك الأنحاء. ولمّا عادت الأمور إلى الاستقرار النسبيّ واستعادت الدولة بعض حضورها، رفض آل حمدان حلّ المشكلة بالتراضي عندما نقلها

حياتها كان الشابّ الذي أحضر قائمة بما يملك من أرزاق وما له من مال في المصرف وطلب منها أن تبرز ما لها من متاع الدنيا في المقابل، فنفرت منه وتوقّفت عن الردّ على مكالماته الهاتفيّة. شابّ آخر لم يطمع بأرزاق تخصّها بل أرادها فقط أن تعيش معه في بيروت بعد سفر زكريا وهي عاجزة عن الابتعاد عن أمّها وعمّتها. أخبرت عنها مغامرات تتمنّى حدوثها لكنّها كانت مجرّد اتّهامات هي منها براء.

وكان هذا المحامي ممّن ترغب مرتا في صداقتهم، لكنّها لا تعرف إلى ذلك سبيلاً فتصغي إليه وهو يحكي مستغرِباً كيف يقبل آل مبارك أن يُحرَموا حقّ المرور إلى أرضهم، الذي يكفله لهم قانون المُلكيّة العقاريّة الصّادر عام 1930. أحضر معه في زيارته التالية كتيّباً وراح يقرأ المادّة 74 منه: "لصاحب العقار المُحاط من كلّ جانب والذي لا منفذ له إلى الطريق العموميّة الحق في أن يطلب ممرّاً في الأراضي المجاورة مقابل دفعه تعويضاً بنسبة الضّرر الذي قد يسببه..."، وكانت مناسبة له ليمتدح الانتداب الفرنسيّ الذي ترك لنا "أساس دولة القانون"، كما قال، وليذمّ الاستقلال ورجال السياسة. يرأس هذا المحامي لجنة "الأرض" داخل الحزب ومهمّتها تشجيع المسيحيّين ومساعدتهم على التمسّك بأملاكهم ورفض بيعها إلى الطوائف الأخرى بعد أن

وقيل أنّ امرأة اعتادت أن تبحث في الحقول عن الجرجير والهليون تبيع باقات منها من باب إلى باب، وقعت في المحموديّة على فطر بريّ أكلت منه فقضت نحبها إثر أوجاع في الأمعاء لا تُحتمَل، أو أنّ رصَداً ظهر على شابّين من البلدة كانا يحاولان الحفر في أسفل المنحدر الجنوبيّ بحثاً عن كنز فأصيبا بهلع شديد ووصلا إلى البلدة مقطوعَي الأنفاس.

لم تنتهِ هنا قصّة الكرم الذي اشترته فيلومينا في عشرينيات القرن الماضي بذهب ميشال لاغرانج الثائر المرتدّ إلى استغلال إيمان السُذَّج من الإنجيليّين الأمريكان. أيقظها بعد سنوات محامٍ ثلاثينيّ مُنتسِب إلى أحد الأحزاب المسيحيّة كان يزور آل مبارك في تلّ صفرا وأعطى الجيران انطباعاً بأنّه مهتمّ بمرتا التي كانت تستنفر كلّما أبلغها بقدومه ودخل إلى البيت وبيده باقة من الورد. مرتا بيضاء البشرة تهتمّ بقوامها، تمارس رياضة المشي وتفتقر إلى بعض الأناقة في ملابسها، عالقة في تلّ صفرا لا تجد من حولها شابّاً تفتح له قلبها ولم يتقدّم إليها مَن يطلب يدها. الشبّان الذين يسكنون البلدة صيفاً وشتاءً أوقفوا دراستهم وهم أيضاً لا يحسبون ابنة هذا البيت الكبير في متناولهم، فمضى العمر على هذا الالتباس. أمّا الذين تحادثث معهم أو اختلث بهم، وهم قلّة، فلكلّ واحد منهم "علّة". مفاجأة

الدعاوى من باب التزامه المسيحيّ، لكنّها أصرّت عليه تأكيداً لقطيعتها الشخصيّة معه، فهي لا تزال مقتنعة أنّه خدعها رغم أنّه لم يحدث بينهما أيّ وعد أو حتّى مصارحة عاطفيّة واقتصر الأمر على ملامسات بسيطة وابتسامات.

هكذا تقدّم العمر بمرتا مبارك، وبدلاً من أن تتساهل في شروطها للزواج كانت تزداد تشدُّداً وتمسُّكاً بحياتها عازبة من دون رجُل، واعتادت حياة النساء مع أمّها وعمّتها بعد سفر زكريا.

ولمّا حصلت على الحكم القضائيّ بحقّ المرور إلى كرم المحموديّة، لم تحرّك مرتا ساكناً، إذ من أين لها أن تشقّ الطريق ولا أحد في جهتها سوى والدتها المريضة، والمطلوب كسر السياج، واقتلاع الأشجار التي تقف في الطريق، ورسم حدودها، وفرشها بالحجارة، ثمّ تزفيتها تأميناً لمرور السيّارات، والكرم لا يزال مهملاً في هذه الأثناء.

احتفظت بالخرائط وانتظرت عودة زكريا الذي تفحّصها بسرعة بعد أيّام على وصوله، ثمّ طواها وقرّر تأجيل النظر في الموضوع حتّى ينتهي من لوحة "عازف الكمان الأزرق" كما خطّط بعد إيابه. لكنّ مرتا بقيت تصرّ عليه أن يبرز حقّه وإلّا مات هذا الحقّ مع مرور الزمن، وأنّ المحامي أودع قلم المحكمة المبلغ

فسلّمها لزميل جديد طلب مهلة للتعرّف على الحيثيّات وإطلاق الاستدعاءات التي تسبّبت في استئناف الاعتراضات، حتّى توصّل بعد ثمانية عشر عاماً إلى إصدار حكم يمكن بموجبه لأصحاب المحموديّة تملُّك الطريق وتعبيدها وصولاً إلى أرضهم. حدّد المبلغ المالي المطلوب دفعه في المقابل وإيداعه قلم المحكمة في حال رفض الطرف الآخر استيفاءه. لكنّ محامي آل حمدان تقدّم بطلب استئناف للحكم، فاستغرق النظر في القضيّة أكثر من سنتين إضافيّتين توصّل القاضي في آخرها إلى تثبيت حكم البداية.

ويتمثّل الطرف الدرزيّ بصورة رئيسيّة بأكرم بن ناصيف حمدان الذي كان يدّعي أنّ أطبّاء جزموا له أنّ والده توفّي جرّاء الإصابة بالرصاص في رجله مع أنّ سبع سنوات تفصل بين الشّجار وبين موته، وأنّ هذه الطريق دُفع ثمنها دماً ولن تمرّ، ويكرّر عبارة "وإنّ غداً لناظره قريب" يريدها على محمل التهديد: "مَن يريد فتح الطريق في أرضنا، فليلاقِنا إلى تلّ صفرا...".

لم يسعَ المحامي إلى تنفيذ الحكم بل أبلغه لمرتا. قرع باب البيت من دون موعد لخشيته أن تتهرّب من لقائه وسلّمها الوثائق واقفاً. لم تدعُه إلى الجلوس وطلبت منه الانتظار لتأتي بمغلّف يحوي ما تبقّى له في ذمّتهم من أتعاب. حاول الرفض قائلاً إنّه يعمل في هذه

إليهم المحامي تفادياً للّجوء إلى المحكمة وتكبُد النفقات. لم يقدّموا إليه القهوة ولم يجيبوه عن عرضه، وقال له أحدهم إنّها مضيعة للوقت والمبلغ المقترح زهيد لا يساوي شيئاً. ذهب المحامي إلى القضاء، وبدأت المماطلة بالتهرّب من تبلُّغ الدّعوة إلى تكرار التبليغ ضمن المهل القانونيّة حتّى التبليغ لصقاً على باب المحكمة وفق الأصول. تلى ذلك التغيّب عن الجلسات كسباً للوقت والتأخُّر في تعيين محامٍ وتقديم الأعذار الصحّية. كرّت بعدها سُحبة الاعتراضات، بدءاً بالتشكيك في الخبير الذي تمّ تعيينه لترسيم الطريق بذريعة أنّه مسيحيّ وقد ينحاز إلى الطرف الآخر فاستبدل بخبير من الطائفة الشيعيّة رفضوا مرافقته عند زيارته إلى الموقع، ليعترضوا بأنّ الطريق التي اقترحها للوصول إلى المحموديّة تُلحِق بالأرض التي تمرّ بها وبأصحابها ضرراً فادحاً، واقتراح طريق آخر طويل صعوداً من أسفل وادي الحجل. يُضاف إلى ذلك قدر كبير من المُماحكات، ورفض التعويض بالليرة اللبنانية بعد انهيار سعر العملة مقابل الدولار الأميركيّ، والتهويل بالاحتكام إلى زعماء الحرب وتصريحات عالية النبرة من نوع: "نحن لسنا متروكين" و"لحمُنا قاسٍ لا يُؤكَل". حتّى أنّ القاضي اقترب من السابعة والستّين من العمر وتأكّد أنّه لن يُنهي هذه القضيّة قبل بلوغه سنّ التقاعد،

14

منذ اللحظة الأولى لم يغب عن ذهن المسؤولين الأمنيّين الاحتمال الأسوأ، أي أن يكون رجال دروز تورّطوا في مقتل زكريا مبارك، المسيحيّ، في تل صفرا. ففور الإبلاغ عن الجريمة، ورغم أنّ الاتّهام التلقائيّ ذهب في اتّجاه أقارب الضحية، أُرسلت إلى مخفر البلدة شاحنة كبيرة تقلّ عشرة عناصر كان من الصعب تأمين أماكن منامة لهم. وكانت تفتح أمامها الطريق سيّارة جيب يستقلّها إلى يمين السّائق ملازم أوّل أُحسن اختياره وأُفهم خصوصيّة البلدة المختلطة التي استطاعت تجاوز الأحداث "الأليمة" التي وقعت قبل أن يولد، من دون مواجهات وتهجير كما حدث في غالبيّة القرى المختلطة. لكن بعد ظهور أبناء يونس مبارك في عزاء ابن عمّهم وتداول فكرة أنّ مقتل زكريا لن يؤمّن لهم قانوناً أيّ حصّة في الميراث العائليّ، لرتدّ أهل البلدة من الفور على احتمال آخر. لا يمكنهم ترك الجريمة غامضة تهدّدهم، فطفت همساً ضمن دائرة ضيّقة يردع أصحابها أنفسهم عن مزيد من الإفصاح خوفاً من إذكاء نار قد تخرج عن السيطرة فكرة تصفية آل حمدان الدروز حساباً قديماً مع آل مبارك الموارنة. بدت فجأة

اللاعودة إلى أن وُجد مُصاباً بطلق ناريّ في تلّة الصّنوبر، في المرتفع المطلّ على كرم المحموديّة، كأن زكريا كان جالساً يتأمّل من بعيد أرض جدّته فيلومينا، ابنة بهيّة المراد.

المتوجّب عليهم دفعه ثمن الطريق وهم ليسوا مسؤولين إن كان الطرف الآخر لم يستلم المبلغ. قصد خلال الصيف الذي عاد فيه إلى تلّ صفرا مرّة واحدة ناحية كرم المحموديّة. أخذ معه الخريطة وحاول التعرّف إلى الممر الذي حدّده لهم القاضي. وقف مطوّلاً إلى جانب السياج الذي يحيط بأرض آل حمدان عندما حضر ابن ناصيف بعد أن أُبلغ من أحد أقاربه بوجود زكريا مبارك في الجوار. لم يُعرف ماذا دار بينهما بالتحديد، لكنّهما شُوهدا يتبادلان الحديث والتشوير بالأيدي قبل أن يعود زكريا إلى البيت ويقول إنّ هذا الكرم يسكن فيه شيطان. تذكّرت مرتا بعد وفاته كيف نظر إليها مليّاً في ذلك اليوم وأوصاها ببيع المحموديّة عند أوّل فرصة، ثمّ توقّف كأنّ فكرة خطرت له في الحال: "ولماذا لا نعطيها لأبناء عمّنا يونس وننهي الخلاف معهم؟ تحمّلْنا وِزر هذه الأرض قرناً من الزمن!".

سألته وهي تنظر إليه باستغراب: "أبيعها؟ أعطيها لأولاد عمّي يونس؟ لماذا تكلّفني أنا هذه المهمّات، إلى أين أنت ذاهب؟".

لم يجب وبقي لوهلة سارحاً في تأمّل بعيد، ثمّ انتبه وأصرّ أنّه لن يتراجع أمام آل حمدان مهما كان الثمن. بدا فجأة متشدّداً متأهباً للأسوأ. لم تعرفه شقيقته يوماً على هذه الحال كأنّه يرغب في المجابهة واجتياز نقطة

زرع آل مبارك صليباً كبيراً عند أطرافها، ما يدلّ على نيّاتهم العدوانيّة.

الخلاصة التي نقلها مساعدو قاضي التحقيق إلى كمال أبو خالد أنّ في القلوب هنا الكثير من المرارة، وقد أثبت أبناء حمدان الأربعة أنّهم كانوا بعد ظهر الأحد الذي قُتل فيه زكريا يشاركون في مهرجان انتخابيّ كبير في مدينة عاليه، حتّى أنّ أحدهم، هذا الذي يعود بكلّ ثقة إلى الوقائع التاريخيّة، ألقى قصيدة حماسيّة من على المنبر هناك، وأخرجوا للمحقّق صوراً من هواتفهم المحمولة تؤكّد ذلك. ولم يُسجَّل في المحضر سوى شهادة للمدعو أكرم ناصيف حمدان الذي أخبر المحقّق أنّه التقى زكريا مبارك قبل أسابيع على مقتله وكان يحمل بيده خريطة يقول إنّها تحدّد له طريق مرور شرعيّة إلى المحموديّة عبر أراضي آل حمدان، وقد تبادلا أطراف الحديث بهدوء وأبلغه أكرم أنّ المسألة لا تُحَلّ بحكم قضائيّ. احتدم النقاش قليلاً بينهما لكنّهما تصافحا في النهاية قبل أن يعود كلّ منهما إلى بيته.

وسط كلّ هذا الارتباك، وبعد عشرة أيّام على وقوع الجريمة، حدث تطوّر لم يكن في الحسبان. دخل قصر العدل في بعبدا وضمن الدوام الرسميّ شابّ يربط شعره خصلة ويحمل على كتفيه حقيبة ظهر لفتت

والدهم ووالد زكريا على طريق الكرم: صحيح أنّ والدهم شهر سلاحه لكنّه فعل ذلك لمجرّد إخافة إبراهيم مبارك ورفيقه وليس بنيّة القتل، وأنّ والد زكريا كان يُخفي مسدَساً في خصره أطلق منه النار وأصاب ناصيف حمدان في رِجله وتسبّب في موته اللاحق، وأضاف أحدهم من دون أن يُسأل أنّهم لو شاؤوا الثأر لوالدهم، لكانوا فعلوها على رؤوس الأشهاد مُدعِّماً موقفه بالمثل القائل: "أخد التار مش معيار". لكنّهم أسقطوا حقّهم عنه أمام المحكمة ولا يتراجعون وهم قوم كلمتهم كلمة. وقد عاد أحدهم في الماضي إلى قرن من الزمان مُسترجِعاً حكاية كرم المحموديّة، مُدّعِياً كأنّه اختصاصيّ في تاريخ لبنان الحديث أنّ المسيحيّين استفادوا حينذاك من الدّعم العسكريّ الذي وفّرته لهم الدول الأوروبيّة بعد حملة نابليون الثالث العسكريّة على لبنان في مواجهة الدولة العثمانية، "الرجل المريض"، استفادوا للاستيلاء بأرخص الأثمان على أراضي الدروز يساعدهم قائد الحملة وكان يعرف اسمه: دو بوفور دوتبول، وأنّ المحموديّة وصلت إلى آل مبارك بالخديعة لأنّ الشيخ سلمان أبي نكد الذي باعهم إيّاها لم يكن بكامل قواه العقليّة وانتظروا وفاة والدته ليرسلوا إليه سمساراً محنّكاً غشّه وأرضاه بالقليل. ردّدوا ما يعرفونه جميعاً أنّه فور انتقال ملكيّتها إليهم

بدت فجأة المقارنة مُغرية: رصاصة مسدَس واحدة مقابل رصاصة مسدّس واحدة ولو بعد نصف قرن، أوّلاً من والد زكريا مبارك إلى رِجل والد ناصيف حمدان، واليوم ردّاً من ناصيف إلى صدر زكريا، وذلك في مكانين لا يبعد الواحد عن الآخر خمسمئة متر على الأكثر.

بدورها، استيقظت مرتا التي لم تكن قد تراجعت بعد عن تجريم أقاربها ذات صباح لتضيف آل حمدان إلى قائمة المتّهمين، فالتقطت عمّتها راحيل أطراف الكلام وكرّرته جزافاً على مسمع قاضي التحقيق المساعد.

تحاشى كمال أبو خالد العودة إلى بيت تلّ صفرا والاستماع لمرتا. شعر أنّها تضلّله عمداً لكنّه لن يستطيع إهمال أيّ تفصيل. لا يزال يتخبّط في احتمالات لوحة شاغال. يستجوب الشابّ الذي رافق بديع مخلوف إلى بيت آل مبارك ويتحرّى عن أصدقاء الأبرص. كلّف مساعداً له استدعاء الذكور من أصحاب العقارات المجاورة للكرم وهم أربعة، ابنَي ناصيف حمدان وأولاد عمّهما، بغية التحقيق معهم وفصلهم عن بعضهم بعضاً للتأكّد من أمكنة وجودهم في ذلك اليوم.

حملت جلسات الاستجواب المتتالية تأكيداً أنّ الذاكرة الطويلة حاضرة ناضرة في تلّ صفرا. فاستمع المحقّقون لرواية يتناقلها آل حمدان حول الشجار بين

- أعرف لكنّني افترضتُ أنّ رجلَي الدرك وجدا المسدّس.

ارتسمت على وجه كمال أبو خالد ابتسامة عصبيّة وهزّ رأسه متوعّداً وسأل: "هل شاهدتم أشخاصاً أو سيّارات في الجوار؟".

- كلا، سمعنا فقط بعد حين، عند نزولنا إلى وادي الحجل، صفّارات سيّارة الإسعاف مُسرعة إلى المكان.

طلب منه القاضي قائمة بأسماء زملائه في نادي الدروب القديمة وعناوينهم وأرقام هواتفهم. تركه بسند إقامة، وبادر فوراً إلى الاتّصال بقائد الدرك لطلب الإذن بالتحقيق مع عناصر مخفر تلّ صفرا بتهمة خلل مسلكيّ فاضح.

بدأ باستجواب المرؤوس، سائق الجيب الذي أكّد أنّ الرقيب صرف فعلاً المشّائين من دون أن يُصغي إلى نصيحته بتسجيل إفاداتهم قبل مغادرتهم وجزم أنّه لم يرَ سلاحاً في مسرح الجريمة. أفهمه المحقّق أنّه يخاطر بوظيفته إن أخفى معلومات، ما يؤدّي إلى إعاقة التحقيق. لم يصمد طويلاً أمام التهديد بالسجن واعترف أنّه في اليوم التالي ومع الزّحمة التي تسبب فيها وصول عناصر عسكريّة إضافيّة إلى المخفر، نام إلى جوار الرقيب في غرفة مشتركة وانتبه إلى أنّه كان

– هل يمكنك تقدير السّاعة التي وقعت فيها الجريمة؟

لم يبدُ لي متخشّباً فالوفاة كانت قريبة، قبل ساعة على الأكثر، أي بين الرّابعة والرّابعة والنصف.

– هذا كلّ شيء؟

– كلّا، طلبتُ مقابلتكم لأبلغكم أنّني بينما كنت منحنياً أتأكّد من دقّات قلب الضحيّة، رأيتُ إلى جانبه مسدّساً يلمع بين الأعشاب، وأنا متأكّد أنّه من طراز غلوك رقم 17، أحدث موديل.

قاطعه أبو خالد: "وكيف عرفت أنّه غلوك رقم 17؟".

– اعتدتُ رؤيته بين أيدي رجال التحقيق في مسلسل "الخبراء أو مسرح الجريمة في مدينة لوس أنجلوس"، أنا مدمن على متابعته.

– كم تقدّر المسافة بين يد القتيل اليمنى حيث كانت متّكئة والمسدّس حيث كان مرميّاً؟

تردّد الطالب ثمّ أكدّ أنّ المسدّس كان بعيداً عن الجثّة نحو ثلاثة أمتار، وهذا البعد لفت انتباهه من اللحظة الأولى.

– وتأتي لتخبرني بذلك كلّه بعد عشرة أيّام، هل تعرف أنّني قادر على ملاحقتك بجرم كتم معلومات؟

الأنظار لأنّه لا يشبه مُرتادي هذا المكان الرَصين. طلب مقابلة قاضي التحقيق المسؤول عن متابعة جريمة تلّ صفرا. دخل وعرّف عن نفسه وعن نادي الدروب القديمة، وأخبر كمال أبو خالد كيف وجد هو ورفاقه الجثّة يوم الأحد ما قبل الماضي وذلك حتى قبل وصول رجال الأمن. كانت المفاجأة كبيرة لأنّ اسم الشاب واسم النادي لم يردا في أيّ محضر وصل إلى يد القاضي.

- هل توافق على تسجيل إفادتك الآن لأنّني في كلّ حال سأستدعيك بصفتك شاهداً؟

دخل عليهما الكاتب وأكمل الطالب روايته: "تجمّعنا على مسافة من القتيل، لكن رجال الدرك، عند وصولهم، أبعدونا عن المكان فأكملنا طريقنا".

- من دون أن يأخذوا إفاداتكم!؟

بدأ قاضي التحقيق يعدّ في ذهنه العدّة لمسؤول المخفر في تلّ صفرا من دون أن يدري أنّ الفضيحة لا تزال في بدايتها.

- أنا تلميذ في كلّية الطبّ في الجامعة اليسوعيّة، وأنا الذي تأكّدت من وفاة الرجل قبل أن يصل أحد.

شبك القاضي ذراعيه ونظر إلى أعلى لا يعرف لمَن يشتكي.

الوطنيّ" أنّ المسدس دار دورة في بيروت حتّى عرضه أحد تجّار الأسلحة المعروفين على صاحبه الأساسيّ بديع مخلوف وهو يقول: "خُذْ هذا، أنت تحبّ المسدّسات الثمينة، تبيعها لأبناء العائلات!".

استدعى المحقّق بديع مخلوف من جديد فأخبره أنّ السلاح عُرض عليه بعد استجوابه بسعر مقبول فعرفه واشتراه بعد أن كان قدّمه هديّة إلى زكريا مبارك، وكان بصدد الاتّصال بالمحقّق عندما تمّ استدعاؤه فحضر وبحوزته الغلوك 17 ليضعه بتصرّف التحقيق، ويذكّر كمال أبو خالد أنّه لطالما نسّق مع الأجهزة الأمنيّة.

ألحق المحقّق المسدّس بالرصاصة والفراغة إلى المختبر العلميّ التابع لـ"المديريّة العامّة للأمن الداخليّ" في انتظار التقرير، وأصدر مذكّرة توقيف بحقّ الرّقيب المسؤول في مخفر تلّ صفرا بتهمة التلاعب بمسرح الحدث واختلاس سلاح الجريمة وإعاقة التحقيق، وطلب إيداعه السجن فوراً.

لم تُضِف المقابلة مع الشابّ سائق سيّارة الإسعاف ومرافقته الصّهباء المتطوّعة أيّ جديد على رواية الأحداث، وأكّدا أنّهما لم ينقلا الجثّة إلى مستشفى البلدة إلّا بعد موافقة الرّقيب والطبيب الشرعيّ. لكنّ الفتاة قالت قبل المغادرة إنّها ذكّرتهما يومذاك بضرورة الاتّصال بالأدلّة الجنائيّة فلم يجدا حاجة إلى ذلك.

تغطّي على جريمة قتل من الدرجة الأولى وعلى مُجرِم!".

عاد الرّقيب إلى نظريّته: "المجرم معروف، يا أستاذ، إنّهم أبناء عمّه، قتلوه بسبب خلاف على الميراث".

زجره المحقّق بأنّ العثور على المجرم مهمّته، وأنّ وظيفة رجال الأمن الحفاظ على الأدلّة وليس إخفاءها والإصرار على تضليل التحقيق. "هذا جرم!"

وجد نفسه يصرخ فعاد يضبط نفسه: "أين المسدّس؟".

انهار الرّقيب: "بعته".

انفجر القاضي من جديد وخبط يده على المكتب.

– مجنون أنت؟

أعطاه الرّقيب لأحد أقاربه في يوم إجازته الأسبوعيّة على أن يبيعه ويعود إليه بالمال ولا يزال ينتظره.

تمّ جَلب ابن أخت الرّقيب وكان شابّاً سهل القياد، فأحضر المال ما إن طُلب منه الحضور. رأى خاله العسكريّ مهزوماً فاعترف كيف أنّ صديقاً له وجد في بيت أهله بعد وفاة والده بندقيّة "أم 16" مع أربعة مماشط وصندوقي ذخيرة من مخلّفات الحرب الأهليّة فباعها ودلّه على التّاجر الذي اشتراها منه. تبيّن من التحقيقات السريعة المتتالية التي أجراها مكتب "الأمن

يحاول أن يُخفي في الدّرج مسدّساً غير مسدسه الأميريّ، سلاح جديد لا يعرف سائق الجيب طرازه.

طلب القاضي بعد ذلك سَوق الرّقيب مخفوراً إلى التحقيق، فحاول الأخير أوّلاً إظهار تعاونه بأنْ سلّم المحقّق الخرطوشة التي عاد ليعثر عليها في مسرح الجريمة، فوضعها كمال أبو خالد في مغلّف وأرسلها إلى مختبر المقذوفات قبل أن يبدأ الاستجواب: "كيف عرفتَ بوقوع الجريمة؟".

– أحدهم أبلغ المخفر على الهاتف الأرضيّ فلم نستطع تحديد رقم المتّصل الذي رفض إعطاء هويّته.

– ورفضتَ الإشارة إلى ذلك في تقريرك، بطبيعة الحال، فالوقائع في مخفر تلّ صفرا استنسابيّة!

بعد السخرية بدأ الجدّ فدخل كمال أبو خالد في صلب الموضوع: "أين الغلوك 17؟".

كعادته، يضرب المحقّق الحديد حامياً، فحاول الرقيب كسب الوقت: "ما هذا؟ هاتف محمول؟".

أنذره القاضي بتجنب التلاعب، وأبلغه أنّ هناك مَن شاهده يلتقط المسدس من جوار القتيل عند العثور عليه ويُخفيه في جيبه، فتلعثم الرقيب وقرّر الحدّ من الخسائر. خفض لهجته وراح يشكو ضيق أحواله وبدأ يعدّد إيجار البيت والأدوية فقاطعه أبو خالد: "لكنّك

– نعم.

– وكيف تجرؤين على تأكيد ذلك؟

– هذا كان شعوري ما إن لمحتُه للمرّة الأولى.

أجابت وهي ترفع كتفيها كأنّ ما تقوله لا يُلزِم أحداً غيرها في كلّ حال، فقال قاضي التحقيق بينه وبين نفسه: "ولِم لا؟".

وكانت ملاحظة لأحد مساعدي كمال أبو خالد تعقيباً على ذلك: "وجدنا سلاح الجريمة في جوار القتيل، ولدى جميع المتّهمين المفترضين ومَن لهم مصلحة في موت زكريا مبارك حججُ غياب صلبة وشهود باستثناء القتيل نفسه".

لم ترُق المزحة لقاضي التحقيق الذي شبّه نفسه في هذه القضيّة بلاعب سيرك يفلت حبلاً في الهواء ليمسك بحبل آخر مع أنّه شعر مع شهادة أعضاء "نادي الدروب القديمة" أنّه يمسك هذه المرَة بالحبل المتين.

– قلّما نحتاج إلى تحقيق، فمرتكبو الجرائم معروفون في الغالبيّة الساحقة من الحالات، وقيل أنّ قتلة هذا الرجل معروفون بالاسم.

– ومتى "قيل" ذلك؟

– فور وصول الجثّة إلى المستشفى...

سيؤجّل التوصية بوقف التعامل مع هذا الطبيب الشرعيّ لكنّه لن يدعه يفلت من العقوبة بسبب الإهمال المتمادي.

تشابهت إفادات أعضاء نادي الدروب القديمة الذين استُجوبوا إفراديّاً حول ما رأوه. منهم من قال إنّها المرّة الأولى التي يرى فيها قتيلاً وجهاً لوجه وإنّ لونه كان مخيفاً يميل إلى البياض، ومنهم من شعر أنّ الرقيب كان مستعجلاً للتخلّص من وجودهم فطردهم طرداً، وكذلك لم يشاهد أيّ منهم مسدّساً بين الأعشاب. خاتمة المقابلات جرت مع فتاة تأخّرت أكثر من زملائها في مكتب القاضي، وعند خروجها امتدحت شخصيّة كمال أبو خالد. استبقاها ليطرح عليها أسئلة إضافيّة بعد أن فاجأته بقول ما بدأ يرتسم في ذهنه بعد اكتشاف المسدّس عن أنّ قسمات الرجل القتيل كانت تدلّ على أسى عميق، وتعتقد أنّه اختار هذا المطلّ الجميل وهذا الطقس الخريفيّ الرّائع ليضع حدّاً لحياته.

سألها من جديد: "تعتقدين أنّ الرجل انتحر؟".

الحوار مع الطبيب الشرعيّ كان غريباً: "وصلتُ إلى مسرح الجريمة في العتمة وأنا شحيح النظر...".

قاطعه المحقّق ساخراً: "وشَعرك، هذا، مستعار؟".

ابتسم الطبيب الذي لا يزال مصاباً بالزّكام، يتمخّط وهو يثبّت الباروكه فوق رأسه.

تقريرك لا يقول شيئاً: "دخلت الرّصاصة بمحاذاة القصبة الهوائيّة واخترقت القلب من جانب العمود الفقريّ". – لم تذكر إن كانت النّار قد أُطلقت من أسفل إلى أعلى أو العكس، هل تأكّد لكَ أنّ الرصاصة أُطلقت على الضحيّة عن بُعد أو عن كثب؟ هل أعلّمكَ المهنة من جديد؟

– حاولتُ التدقيق هل هناك أثر لغبار الرّصاصة، ما يؤكّد أنّها أُطلقت عن قرب، لكنّ الظلام منعني وكذلك فرغت البطّارية في مصباح المُسعِفة التي كانت تُضيء لي المكان.

– وماذا فعلتم؟

– حاولنا الاستعانة بمصابيح السيّارة من دون فائدة.

أطلق القاضي ضحكة عصبيّة: "لا حول ولا قوة إلّا بالله، نقلتُم القتيل إلى المستشفى حيث نُزعت عنه ثيابه وجرى غسله. هل تحدث هذه الفوضى معكم في كلّ مرة؟".

عند تقاعده، أدركت والدتها أنّها ستكون معه وجهاً لوجه طوال اليوم فغادرت البيت بعد شجار ليليّ وانقطعت أخبارها ولم يسعَ وراءها أحد. ثيابها وصور مراهقتها لا تزال في البيت. خافت جاين أن تعثر عليها فلا تعرف ماذا تفعل بها. تحبّ والديها كثيراً، تحبّ الاثنين، كلٌّ بطريقة، ولا تطيق الحياة معهما، يوم واحد كفيل بإطلاق الصّراخ وإحداث الفراق من جديد.

جاين أيضاً لن تقيم في بوسطن، تريد مكاناً لها، جديداً، لا تثقله الذكريات. أمضت هي وزكريا في المدينة أسبوعاً بقيت خلاله قلقة تتحدّث طويلاً على الهاتف، تبتعد عن زكريا لتتكلّم بحرّية ثم تعود وقد اتّخذت قرارها. عند أوّل بائع للسيّارات المستعملة اشترت الجنرال موتورز سييرا الحمراء ذات الدفع الرباعيّ المتوقّفة جاهزة عند المدخل، دفعت ثمنها بواسطة بطاقة الائتمان وطلبت من زكريا أن ينتظرها في أحد المقاهي الذي يعجّ بالطلّاب. كانت تقود بطلاقة، أرسلت له قبلة من يدها. غابت لساعات وعادت بعد الظّهر فتوجّها غرباً. سيجتازان القارّة من ضفّة إلى ضفّة، تقول إنّ لديها "موعداً ضروريّاً" في سياتل، على [illegible] بوسطن. تناوبا على

الهالة التي أحاطها بها زكريا لتضمّ والدها المُقيم وحده تسهر على حاجاته خادمة سوداء تأتيه ساعة كلّ صباح، في ضاحية سومرفيل. كان رجلاً غامضاً، أزرق العينين، وجهه المنحوت نحتاً تحرثه التجاعيد، عرّفته على صديقها: "زاك، من لبنان".

كان قَضم اسمه على لسانها بمنزلة عمادته الأميركيّة. لم ينبس والدها ببنت شفة، كأنّه لم يسمع ما قالته. يجلس على كرسيّ هزّاز على الشرفة، لم ينهض لاستقبالهما وكذلك لم ينهض لتوديعهما. ترك لديه انطباعاً أنّه يتحيّن خروج ابنته الوحيدة وصديقها من بيته ليعاود التحديق في هذه الفجوة العميقة في نفسه. لكنّه فجأة بعد أن فقدا الأمل في سماع صوته، تكلّم، سأل جاين هل صديقها يهوديّ، فقالت مستنكرة إنّها لا تعرف، أي لا تريد أن تعرف، فأجابه زكريا أنّه عربيّ فاعتقد أنّه مسلم. "كلا، أنا مسيحيّ"، فبدت المعادلة صعبة على السيّد مولوي الذي أتعبته هذه المحادثة القصيرة وعاد إلى صمته المطبق. بيته أنيق تحيط به أشجار حور عارية يتسلّق عليها سنجاب أليف وأزهار الياسمين الشتويّ والكاميليا.

أخبرته جاين عند خروجهما إلى الشارع الفسيح وهي تمسح دمعة أنّ والدها أمضى حياته في مصنع للحديد، منها عشرون سنة فوق آلة اللحّام أتلفت عينيه.

15

حجز زكريا بطاقة سفر ذهاباً فقط. لم يحمل إلى بوسطن ثياباً ولا أحذية، في كتفه أسطوانة ”عازف الكمان“، وفي حقيبة اليد كتبه العربيّة العشرة وقبّعتان، واحدة لكلّ فصل. وضع في جيب سترته جواز سفره ومفكّرة أمّه وشهادة الأصالة من مارك شاغال. إضافة طبعاً إلى حمولته الجديدة، جاين مولوي، التي غفت لساعات في رحلة الطائرة خلف قناع العينين الأسود. هو لم يغمض له جفن، يسهر عليها، يُخدّر زنده ولا يسحبه من خلف رأسها كي لا يوقظها، وهكذا في طائرة ”البوينغ 747“ تقاسما الأدوار. تمضي في حياتها وتعرف أنّه وراءها أينما اتّجهت. سُحر زكريا مبارك من تلّ صفرا، أعمال جبل لبنان الجنوبيّ، خلال أيّام معدودة بتلك الفتاة الأيرلنديّة الأصل التي هاجر أجدادها إلى الولايات المتحدة في أربعينيات القرن التاسع عشر هرباً من المجاعة الكبرى في جزيرتهم. تشرب البوربون جرعات كبيرة كالرجال، لا تتوقّف عن تلقّي الرسائل والإجابة عنها في هاتفها الجوّال، تُكثِر من الشّتائم الشائعة يمنة ويسرة وتقول عن نفسها إنّها الغصن الذي فسد، فالعائلات في نظرها تمرض كالأشجار. اتّسعت

فالتوقّف يضعها أمام نفسها، كما تقول، أمام مصاعبها التي لا تحتمل، لا حياة لها سوى بالتّرحال.

– أنا امرأة جوّالة؛ إذا استقررت، أموت.

يداعبها، يحملها بين ذراعيه ويمشي بها، يهمس لها أنّ جدّته جاءت إلى أميركا وعادت بليرات الذهب الإنكليزيّة وهو سيعود إلى بلاده بجاين مولوي، فيُضاء وجهها وتستسلم لحلم يقظة صعب المنال.

وصلا إلى سياتل، تركته جاين واختفت يوماً كاملاً مع السيّارة. يومٌ تاه فيه من دونها، تذكّر بيت أهله فاشترى هاتفاً محمولاً من جوار الفندق وحاول الاتّصال بتلّ صفرا. لم ينجح، بقي مستيقظاً طوال الليل، أخرج مفكّرة أمّه وهو ينتظر جاين، فتحها عشوائيّاً: "السبت 25 تموز، لا شيء يناديني في الخارج، لا شيء في بيروت، لا أحد في تلك البلدة الجميلة، لا أجرؤ على الجلوس في فيء شجرة الجوز الوارفة أمام البيت، لا طاقة لي على مسايرة الجيران أو عابري السّبيل. مرتا وزكريا يحبّان الناس، أغبطهما على ذلك...".

عادت جاين في الصّباح وغفت في حضنه كما تفعل كلّ ليلة، وعند الظّهر قالت إنّه بات لديهما المال الكافي للاستمرار في رحلتهما فلم يعلّق. أسرارها تتراكم.

يمّما شرقاً بإرادة القبطان. إلى نيويورك، إلى الضفّة الأخرى مجدّداً. جدّته جاءت هذه المدينة بحراً من

وقالت إنّها إذا أغرمت به وتركها، فستطعنه في قلبه. حكى لها عن تلّ صفرا وعن جدّه جبرائيل الذي كان يحمله على كتفيه، يدور به في أحد الشعانين وبقي على هذه العادة حتّى بلوغه العاشرة وهو يُوصيه بفاكهة الدّنيا، أي النساء. يتحاشى سؤالها عن حياتها الماضية، يغار عليها ممّا فعلته من دونه قبل لقائهما في الغابة السوداء، وبدا له من تفاصيل جانبيّة وأسماء علَم أنّ حياتها لم تكن بُحيرة ساكنة.

أمضيا أكثر من أربعين يوماً على الطرقات وأدرك أنّ حبّه لجاين مولوي لا يخبو، فهو لا يشبع من تأمّلها حتّى أنّها كانت تستيقظ في الصّباح وتزجره: "لا أريدكَ أن تنظر إليّ وأنا نائمة".

يبتسم ويرغب لو يبقيان معاً، وحدهما في موتيل صغير، "الورود الثلاث"، تديره تلك المرأة الستّينيّة، مسز جاي–باركر التي أسمته هكذا تيمّناً ببناتها الثلاث اللواتي فرَرن مع عابري السّبيل وتركنَها وحدها محاطة بالهرر السياميّة والنّباتات الاستوائيّة المزروعة في أواني الفخّار، في بقعة نائية بعيدة عن الطريق السّريع. هناك نزعَ كابل البطّارية خلسة في المساء فمات المحرّك في الصباح عند محاولة إدارته وثارت جاين. صارت تضرب غطاء السيارة بيديها كأنّ مصيبة حلّت بها،

فيتأمّلها بينما تصرخ الأغاني في المذياع. في الموتيلات، يمارسان الحبّ ما إن يستيقظان، يأتيها من بعده بالقهوة والدونات المحلّاة. شبعَ من مطاعم الطرقات ووعد جاين بنكهات الشرق مجتمعة إذا سكنا منزلاً: "ستكتشفين زكريا الطبّاخ الكبير". لا تجيب، ليست مستعدّة ولم تولد لإدارة البيوت، تقرأ فانته ونورمان مايلر ولا تطيق تمضية ساعات المساء في الغرف. يستيقظ زكريا بعيد منتصف الليل فلا يجدها، يهرع إلى الخارج، إلى الشارع، يدخل أقرب حانة لا تزال تستقبل الزبائن فيجدها جالسة إلى البار بين رجلين تتبادل معهما الأنخاب المضحكة والنكات كأنّهما من أصدقائها القدامى. يعود بها إلى الفندق وهي متعتعة، بدأت بالبيرة وأكملت بالويسكي، لا تكاد تتمكّن من الوقوف على قدميها.

في شيكاغو، اشترت ورقاً للفّ السجائر قرب محطة للوقود وبدأ زكريا من بعدها يشتمّ الحشيش في رائحة ثيابها عندما يضمّها إلى صدره. سألته للمرّة الأولى في مطعم للوجبات السريعة في داكوتا الشمالية ماذا يحمل في أنبوبه المعدنيّ ولا يفترق عنه حتّى في المرحاض. أخبرها ملحمته الفرنسيّة وبالغ في قصص غرامه وعرّج حتّى على مرض ماتيلد لاغرانج، لكنّه تفادى قصّة "عازف الكمان الأزرق". سخرت من زير النساء العجائز

عند الغداء أو من أجل التزوّد بالوقود. سيكتشف لاحقاً أنّه كانت لجاين سوابق في إصلاحيّة الأحداث بتهمة ترويج المخدّرات في الثانوية ولم تكن بلغت الثامنة عشرة بعد، كما نجح المحامي في تبرئتها لاحقاً من تهمة أخرى بتأليف عصابة للسطو.

للمرّة الأولى، ومن دون تخطيط مُسبَق، نام زكريا على كتفه اليسرى ونامت جاين على كتفها اليمنى والأرجح أنّ أحلامهما في تلك الليلة لم تلتقيا.

في صباح اليوم التالي، كانت جاين تقود لمّا التقطت مرتا مبارك الهاتف في الطرف الآخر من الدّنيا. شهقت باكية لأنّها تأكّدت من صوت أخيها. طلب زكريا من جاين التوقّف إلى جانب الطريق السريع، فالأمر جَلَل.

ماتت أمّي، دفنّاها قبل أسبوعين ولا وسيلة معي لأخبركِ، ذهبت أميلي وبقيتُ، أنا، وعمّتي راحيل.

دمعت عيناه ولم يعرف ماذا يقول، فأكملت مرتا تخبره كيف كانت تُوصيها وسط نوبات السّعال التي استحكمت بها في أيّامها الأخيرة ألّا تخبر شقيقها بأنّ صحّتها تتدهور، ألّا تخرّب له حياته حيث هو، فكلُّ نفس ذائقة الموت، تقول.

لم تجد جاين الكلام لتعزيته فقبّلته على عينيه، وفي محطّة التوقف التالية طلب زكريا غرفتين مستقلّتين؛ لا يريد لجاين أن تتحمّل أساه. أقفل الباب، ارتمى على

كانت سعيدة بتورّطه، هكذا يتساويان لأنّه عندما وصل إليها الدور جاء اعترافها مفاجئاً. لها صديق دراسة في بوسطن يؤلّف الموسيقا لأغاني لا تحظى بنصيب من الشهرة، فيعمل كتاجر ممنوعات متوسّط في الغرفة الخلفيّة لاستديو التسجيل. خبّأ عشرة كيلوغرامات من الكوكايين في محرّك الجنرال موتورز وأرسلها مع جاين إلى سياتل حيث سلّمتها لشركاء الرجل في مقبرة للسيّارات قريب من مرفأ المدينة. يبدو أنّ هذه المسافة البعيدة كفيلة بتضييع الأثر عن أعين مكتب مكافحة المخدّرات. حصلت على مكافأتها.

– أنا أُنفِق على "المنزل" وأنتَ تحمل في كتفك ثروة وهميّة...

بدا عليه الكدر فحاولت مراضاته: "نحن بوني أند كلايد لكن لا أحد يسعى وراءنا!".

– والحاجة إلى التّرحال الدّائم، "إذا استقررتُ، أموت"، كانت مجرّد تمويه، كنتِ تسخرين مني؟

لم تجب. لكن بعد قليل ضربت يدها بقوّة على المقود وهتفت: "هذه أسراري العظيمة، هل أنت سعيد الآن؟".

عند خطّ الطول 120، فقدا عذريّتهما معاً في غضون دقائق لكنّهما أكملا القيادة بالتناوب وحلّ بينهما صمت مديد تقطعه ملاحظات فاترة حول الحاجة إلى التوقّف

الشرق وها هو يأتيها برّاً من الغرب. لكنّه بدأ يتعب، مزاجه يتغيّر، يشعر أنّ جاين تقطره وأنّ حياة البدو الرحّل ليست له.

عاودت الكرّة على الطريق، في السيّارة، وجاء دورها في القيادة بعد الخروج من مينيابوليس: "لم تخبرني ماذا تحمل في كتفك؟ أتريدني أن أسرقه وأنت نائم؟".

– إنّها قصّة نذالة لا تشرّفني.

– أخبِرني إيّاها في كلّ حال، ربما أسجّل عليكَ نقاطاً أنا في حاجة إليها.

– شرط أن أعرف ما تخبّئينه عنّي في بوسطن وسياتل، مع أنّني أفضّل أحياناً أن تبقَي مُحاطة بأسرارِكِ...

ضحكت عالياً: "هذا العالم لم يتغيّر، فالشرقيّ لا يزال يخترع فتاة من بنات أفكاره!".

لم يُخفِ عنها شيئاً، حاول وصف تلك الليلة في سان بول دو فانس عندما تردّد بين الوفاء والمودّة لصاحبة "دوّار الشمس" وبين نزعة الفرار المتأصّلة فيه، التي دفعته إلى حمل اللوحة ليلاً والإقلاع بها.

– وكيف ستبيعها؟

– لا أدري!

– أنت سارق، أنت خارج على القانون!

تضاربا بقوّة، لفّت ذراعها حول عنقه، حملها ليرميها رأساً على عقب، عضّته في معصمه، أوسعها ضرباً براحة يده الأخرى على قفاها، تبادلا الشّتائم المتنوّعة، أطلق زكريا بعضها بالعربيّة، أفرغ حزنه على وفاة أميلي وأفرغت كبتها ثمّ تعانقا طويلاً. أسند ظهره على باب الجنرال موتورز لجهة الطريق وطوّقها بذراعيه فيما السيّارات وشاحنات النقل تمرّ بهما مسرعة ومنها مَن يطلق سائقها بوق منبّهه البحريّ العالي احتفاء بالعاشقَين المتيّمين.

التصق بها من جديد، سلّمها القيادة عندما كانت الشمس تهمّ خلفهما نحو الغروب والطريق أمامهما تلتمع بسراب يترقرق إلى البعيد. كانا هادئين خارجين من معركة عنيفة بينما مذياع السيارة يبثّ لحنه الراقص:

دخلتُ الرمل على صهوة جواد لا أعرف اسمه،
فشعرتُ بالارتياح بعيداً عن المطر،
تتذكّر اسمك في الصحراء.

عند استئنافهما الرّحلة باتّجاه نيويورك، جلس زكريا وراء المقود وداس على السرعة تدريجيّاً حتّى بدأ محرّك الجنرال موتورز يهدر مُستغيثاً كأنّه بلغ حدود إمكاناته، وفي الوقت نفسه، رفع صوت الموسيقا إلى أقصاها. خافت جاين، تشبّثت بالمقعد وثبّتت رجليها في أرضيّة السيّارة؛ أوّل فكرة خطرت لها أنّ زكريا الذي صعقه خبر والدته يغازل الخطر والموت. صرختْ فيه أن يتمهّل وأن يدعها تقود لأنّ الشّرطة ستطاردهم حتماً إذا التقطهم الرادار وهو لا يحمل إجازة سوق أميركية، وبهذا القدر من السرعة، قد يُسجَن وقد يُرحَّل عن الولايات المتحدة. كان يدّعي أنّه لا يسمع ما تقوله بسبب صوت المحرّك، لكن راقت له فكرة التّرحيل وسألها ساخراً هل تصحبه أيضاً في "رحلة عمل" باتّجاه الضفّة الشرقيّة للولايات المتحدة حتى إن كانت تخفي الكوكايين داخل المحرّك. تُخفِض صوت الراديو فيُعيد رفعه حتّى قرّر فجأة التوقّف إلى جنب الطريق. ترجّل متوتّراً ورفع الغطاء وراح يبحث عن كيس المخدّرات داخل المحرّك وهي جالسة في السيّارة تدخّن وبعد قليل شرعت في البكاء. ردّ غطاء المحرّك بضربة قويّة واقترب لينحني فوقها فصفعته على خدّه صارخة: "أفعل ذلك من أجلنا أيّها المعتوه!".

– كنت تفعلينه قبلنا أيّتها الكاذبة!

وجهه فوق السرير وشرع في البكاء عالياً. كان بين حين وآخر يضرب الفراش بقبضته. بقي ليومين متتاليين من دون أكل، قرعت عليه جاين الباب مراراً ونادته فلم يستجب لطلبها بالخروج، وضعت له البيتزا باللحم المقدّد والمشروب الغازي خلف الباب: "الأكل هنا".

– لا تخافي عليّ، أحتاج أن أختلي بنفسي فقط حتّى يوم غد.

يفتح مفكّرة أميلي من جديد، يقرأ فيها عالياً ويبكي: "علّمني والدي حُبّ الحروف، كان مديراً لمطبعة الجامعة الأميركيّة، اللغة العربيّة موطنه الثاني، لكنّه لم يُعطِني مفتاحاً للعبة الحياة السَمِجة. أحتفظ دائماً بنسخة **القرآن الكريم** التي أهداني إيّاها وأعتقد أنّني مع الوقت حفظتُه عن ظهر قلب، لا، بل إنّني قادرة على إكمال أيّ آية يُتلى على مسمعي مطلعُها...".

بعد البكاء أدرك أن لا مفرّ أمامه من العودة إلى بلاده؛ دقّت الساعة، له هناك أشياء أكثر ثباتاً. سيخطّط لرحيله على مهل من دون أن يُخبر جاين. عاود الاتّصال بمرتا وأبلغها نيّته بالعودة قريباً إلى تلّ صفرا فلم ترحّب، لا، بل طلبت منه أن يتمهّل في قراره. دارت به الدّنيا وعاد ليجد نفسه في الموضع نفسه مع كلّ امرأة شغلت قلبه مرّة: يتحيّن الفرصة المؤاتية للفرار.

دون حماية قد يسقط تحت نداء الهوّة ولو لم يكن قانطاً في العيش أو مجروح الفؤاد.

كان زكريا يصرخ طالباً النجدة من المتجمّعين عند المصطبة وهو يمسك بها ويمنعها من الطيران إلى الأسفل كما كانت توحي وهي تجدّف بذراعيها في الهواء. لعبة الخطر تابعتها ما إن شعرت بقوّة تثبّتها في مكانها. وزنها ضئيل يسهّل عليه جذبها إلى الخلف. لكن وسط هذه المعمعة وتجمُّع السيّاح واندفاع شبّان وفتيات غالبيّتهم من اليابانيّين للمساعدة لمعت في رأس زكريا فكرة التخلّي عنها. يفكّ ذراعيه من حول خصرها فتسقط في القعر البعيد، ينتهي من عبئها، يرتاح، تتجدّد حياته. لمحة عابرة جعلته يرخي يديه لثانية أو أقلّ فأحسّت جاين أنّها صارت في الفراغ من دون ركيزة وفي طريقها إلى الهاوية فأطلقت صرخة حادّة طلعت من أحشائها فشدّ إثرها زكريا ذراعيه لاشعوريّاً حولها من جديد بينما امتدّت أيادٍ أخرى عدة إلى جاين لإنزالها عن الحاجز.

كانت تضحك بإثارة وهي تمسح رذاذ الماء عن وجهها. أخبرته عندما تمكنّا من سماع بعضهما بعضاً أنها كانت تحاول اختبار نفسها واختباره.

– كيف ذلك؟

الأماميّة حيث المنظر المهيب يسمّر المتفرّجين في أماكنهم لا يسمعون بعضهم بعضاً إذا تكلّموا. وقفا مخطوفَين وفي لحظة مباغتة لا بدّ أنّها خطّطت لها منذ البداية، منذ تركا طريق نيويورك وتوجّها إلى الحدود الكنديّة، تسلّقت جاين مولوي برشاقة "حاجز المجانين" واستقرّت واقفة على قضيب الحديد الأفقيّ ما قبل الأخير. اتّكأت بركبتيها على حاجز الحماية الأخير بينما القسم الأكبر من جسمها صار معلّقاً في الهواء آيلاً للسقوط عند أدنى انزلاق أو عندما يميل ثقلها إلى الخارج، وهذا ما كان يحدث أمام عيني زكريا الذي صرخ بها. تسلّق وراءها وأحاط حوضها بذراعيه.

يرمي شخص على الأقلّ في الأسبوع الواحد نفسه في هذه المياه الجارفة؛ إنّها من أكثر المواقع جاذبيّة للرّاغبين في وضع حدّ لحياتهم، الخائبين، المُفلِسين وخصوصاً المُكتئبين. تجاوز عدد مَن انتحروا هنا أو خاطروا بمحاولة الوقوف فوق الصخور وانزلقوا وقضوا نحبهم خمسة آلاف. قلّة قليلة سقطوا من أعلى الشلّالات ونجوا فعضّوا بعدها على الحياة بأسنانهم. غالبيّة الضّحايا من الرّجال البيض على أنّ عدد النساء يفوق عدد السّود، ويُحكى كثيراً عن جاذبيّة الماء، فالسّائح الذي يترك نفسه قريباً من هذا التدفّق ومن

16

لم يدخلا نيويورك. توقّفت جاين أمام صيدليّة تدّعي أنّها تريد شراء أقراص للصّداع. أطالت المكوث في الداخل وعادت تقول إنّ البائع الأسود العجوز ثرثار لا يعرف كيف ينهي المحادثة ولم يكن هناك زبائن غيرها. أحسّ زكريا عند ركوبها السيّارة بلمعة حماسة جديدة في عينيها، بطارئ تخفيه عنه، كما شُفيت من وجع رأسها بسحر ساحر. طلبت منه بإلحاح طفوليّ سلوك الطريق السّريع شمالاً ففعل. خطوط سيرها تُخفي المفاجآت وتعِد بالأخطار لكن النهاية باتت قريبة. أحسّت هي في المقابل، من تفاصيل صغيرة، من يد لم تعد تداعب يدها كلّما التقتها، من نظرات قلّما باتت تسهر عليها بل تتوه في المشهد، أنّ زكريا بدأ ينفصل عنها: "لا تخَف، السيّارة "نظيفة"، نزور شلّالات نياغارا ومن بعدها تفعل في حياتك ما تشاء، لا حاجة بك إلى الفرار منّي، أخبِرني فقط عندما تنتابك حمّى الهرب فنودّع بعضنا بعضاً كالكبار العقلاء".

وجدا غرفة صغيرة في نزل فكتوريا، حمل كلّ منهما في صبيحة اليوم التالي كوباً من القهوة وسارا باتّجاه هدير المياه المتدفّقة. أمسكته من يده في الشّرفة

ساعة يده حتّى تقترب نهاية دوامه وتفرغ الطاولات فيسرع إلى جاين. يعتني بها من الألف إلى الياء وهي مستسلمة لاهتمامه. تقول إنّه مهما حدث، فلن تحمل ثانية لأن جسمها لن يقوى على تكرار هذا الاعتداء المُريع. يبحث في الإنترنت، يشتري كتاب النّصائح للنّساء الحوامل، ينظّم لها الأكل وساعات النوم، يكوي الثياب، يتأكّد من وزنها مرّة كلّ يومين، يرافقها إلى الهرولة الصباحيّة في منتزه السنديان ما إن شُفيت من وحامها. يقود بها بعد ذلك إلى العيادة النسائيّة، يحدّد لها هناك مواعيد يكون فيها حاضراً متفرّغاً، وحده رجل بين حشد من النساء، يُصغي إلى دقّات قلب الجنين قبل أن يؤكّد لهما الطبيب بعد تفحّص الصورة الصوتية أنّ جاين حامل بأنثى.

– بنت!

هذا ما أمله زكريا الذي لم يسمع من حوله في صغره سوى الرّغبة في الذكور. مرّت على ذهنه أسماء نساء عائلته وأطباعهنّ المختلفة. لديه الآن كنز جديد.

لكنّ الحياة الزوجيّة لم تكن دوماً نهراً طويلاً هانئاً، ففي الشهر الخامس، استعادت جاين سلوكها المقيت. عاد زكريا يوماً إلى البيت بعد نوبة الغداء في المطعم فلم يجدها وكان هاتفها مقفلاً. لم يعرف أين يبحث عنها، شرب الكثير من البوربون وجلس في عتمة غرفة

بات الاستقرار ضرورة ملحّة، فاستأجرا بيتاً في ساراتوغا سبرينغز بما تبقّى من أموال جاين، ونجح زكريا في إيجاد عمل في مطعم يقصده ظهراً موظّفو المكاتب في الوسط التجاريّ، "الفيل الأبيض". اختبروه أسبوعاً؛ كلّفوه تحضير الصّحن اليومي: صيّادية السّمك بالأرزّ والبصل والزّعفران مرّة، وشيخ المحشي مرّة أخرى، فنال استحسان الزبائن الذين طالبوا بالمزيد من هذه المذاقات الشرقيّة الغريبة الطيّبة. أصرّوا على التعرّف إلى الشيف شخصيّاً فطالب زكريا صاحب المطعم بدعم حصوله على إجازة عمل ليؤمّن بواسطتها إقامة دائمة، وبعد تسوية وضعه القانونيّ تزوّجا من دون احتفال. هو بالقميص الأبيض الذي بدأ لا يفارقه، وهي بسروال جينز يظهر بداية تكوُّر بطنها، مع شاهدَين من العاملين الإداريّين في مكتب البلديّة. أتبعاها بجلسة مسائيّة على شرفة البيت شارك فيها زكريا جاين سجائر الحشيشة للمرّة الأولى واكتشف أنّها تزرعها بالخفاء عنه في أوعية تُبدّل أمكنتها لتلحقها الشمس قدر الإمكان، تشبه أوعية الزهر التي توزّعها شقيقته مرتا في بيت تلّ صفرا، واحتسيا وحدهما قنّينة شامبانيا فرنسيّة رخيصة، فقط ليكون لطفلهما والدان شرعيّان.

في المطعم، ورغم حُبّه إطعام الآخرين وانتظار تذوّقهم أطباقه وثنائهم عليها، لا ينفكّ زكريا ينظر إلى

– أعطيتُكَ فرصة التخلّص منّي فلم تفعل، ربّما تندم لاحقاً.

– وأنتِ كان بإمكانك أن تقفزي، لِم لم تفعلي؟

– ليس حبّاً بك بل بطفلك.

لم يفهم.

– أنا حامل، كما وعدتُكَ في فرنسا، أمام كاتدرائيّة ستراسبورغ.

انفعل حتّى احمرّت أذناه.

– لا أصدّق!

– كما تشاء، لكنّني أجريتُ اختبار الحمل عندما توقّفتُ في الصيدليّة قبل أيّام على الطريق إلى نيويورك إن كنتَ تتذكّر!

انقلبت الدّنيا. نيزك حطّ فجأة بينهما. لن يغادر إلى أيّ مكان، لن يرى تلّ صفرا قريباً؛ دخل، كما في حلم يزوره أحياناً، مسلكاً غير صائب في الأوتوستراد السّريع لم يُلحَظ فيه طريق للعودة إلى المسار المُستقيم.

انقضت الأشهر الثلاثة الأولى بين الغثيان صباحاً والاستفراغ نهاراً، إضافة إلى التعب الدائم والحاجة المتكرّرة إلى التبوّل عدا تقلّبات المزاج. لم تكن جاين بحاجة إلى الحمل لتنتقل في لحظة من الرضى بالقليل إلى الغضب من دون سبب.

ستراسبورغ وأعجب زكريا الاسمُ بعد أن تخلّى عن فكرة تكرار أسماء العائلة. الجديد جديد. لكن مخاض الولادة كان صعباً ودام ساعات. رافق زكريا جاين إلى المستشفى وأصيب هناك فجأة بأوجاع في أسفل بطنه لم يعرفها في حياته من قبل، وقال له الطبيب عندما وصفها له إنّها عوارض الولادة نفسها وهو يُدخله إلى غرفة العمليّات لمساندة زوجته حيث انتهت آلامه مع خروج ماري وإطلاقها صرخة الحياة.

طلب زكريا "إجازة ولادة" أراد أن يرافق فيها ماري من يومها الأوّل، ومع انتقال الأمّ إلى البيت كان يستيقظ واقفاً على رجليه كلّما بكت الصّغيرة جائعة. يسخّن لها الحليب بعد أن رفضت جاين إرضاعها من الثدي لأسباب أنتربولوجيّة؛ "إنّه أقرب الأفعال إلى الحيوان"، تقول.

لم يكفِ ذلك بل أُصيبت بعد ولادة ابنتها باكتئاب لم تُشفَ منه حتّى مع بلوغ ماري عامها الأوّل، وكانت فرصة فاشلة ليحاول زكريا إعادة جمع عائلته الصّغيرة في احتفال دعا إليه قلّة من الأصدقاء والجيران. أوقعت جاين والأرجح من دون قصد الكعكة المُزدانة بشمعة واحدة وهي تحملها إلى غرفة المعيشة فتبعثرت الكريما في كلّ مكان، وأمام التعاسة العميقة التي ارتسمت على وجهها تبرّعت إحدى الجارات بتنظيف

وهي تدلّ إلى الموسيقار صاحب الوجه الطفوليّ: ”هل هذا هو ثروتنا الموعودة؟“.

– مبدئيّاً... لا تلمسي اللوحة بيدك ستفسدينها.

سألته وهي ترمش بعينها: ”هل تريدني أن أعرضها على أصدقائي؟ قد يجدون لها شارياً“.

– كلا، إيّاك أن تفعلي ذلك، ولا تذكري وجودها أمام أيّ كان، ربما نتعرّض للسرقة والقتل، إنها تساوي الكثير الكثير.

في اليوم التالي، ولأنّه لا يثق بجاين، استأجر من دون إبلاغها خزنة في ”بنك ساراتوغا الوطنيّ“ وارتاح فيها من لوحة شاغال. كما أدرك وهو يختبئ فيها أيضاً دفتر يوميّات أميلي أنّه انشغل عن ألم فقدان أمّه. تهبّ عليه ذكراها الحزينة فقط إذا ما أُصيب بأرق ليليّ. انشغل عن أهله بفرحة انتظار ولادة ماري.

– ماري.

جاء اختيارهما اسم الطفلة من دون أيّ نقاش، ففي يوم نادت جاين على زكريا: ”ألا تريد أن تسمع ركلات ماري؟“.

ألصق أذنه ببطنها وابتسم موافقاً: ”ماري مستعجلة للخروج!“.

كانت هذه أسهل طريقة لتسمية مولود. تذكّرت جاين أنّها اشتهت طفلاً أمام كاتدرائيّة مريم العذراء في

المعيشة ينتظرها. عادت قبيل منتصف الليل منتشية، جنّ جنونه: "الكحول تقتل الجنين!".

– إذن، تهتمَ لأمري طالما أنا حامل، بعد الولادة سترفسني إلى البعيد!

وصل صراخهما إلى الشارع. لا تقبل الأسر، ترفض أن يُملي أحد عليها سلوكها: "غادرتُ منزل والديّ يوم صرخا في وجهي لأنّني تأخّرتُ في العودة إلى ما بعد منتصف الليل. أنا حرّة، حرّة في وقتي وثيابي وأصدقائي!".

بقيا مستيقظَين حتّى الفجر وفهم زكريا أنّ عليه استرضاءها وانتظار ولادة الطفلة. خشيته الكبيرة، كابوسه، أن ترحل بها. يُكثِر لها من قوالب الحلوى والمآكل الشهيّة. يشتري بطاقات لدخول حفلات سباق الخيل المشهودة؛ تحبّ الجياد وتتسلّى بمنظر قبّعات النساء في مقصورة الشخصيّات. لكنّها لم تتوقّف عن الفرار إلى أقرب حانة مع حلول ساعة الغسق، تحوّلت إلى طفلة عابثة، لا ترتّب خزانة الثياب ولا تغسل الصّحون في المطبخ. تسمح لنفسها ليلاً باختلاس الأسطوانة من تحت السّرير حيث اعتاد زكريا الاحتفاظ بها، تفتحها وتُخرِج "الكمنجاتيَ الأزرق"، ولمّا يستيقظ زكريا بعد أن ينتبه إلى مغادرتها الفراش، تسأل متهكّمة

إعادتها معك إلى بلدك. لن تجد لي مكاناً في سجلّ نسائك الذهبيّ، أنا جاين مولوي ابنة عامل الحديد التي لن تؤسّس عشّاً، لا آكل حتّى يعضّني الجوع، أكتفي بالوجبات السريعة والموتيلات الرخيصة وبعض السجائر وبعض الأغاني. لا تحاول الاتّصال بي، سأرمي هاتفي الجوّال من فوق أوّل جسر أجتازه ولن أقتني هاتفاً آخر، أنا لم أسعَ وراء أمّي، ذهبت وراء حرّيتها متأخّرة وليكن، وأتمنّى ألّا يبحث عنّي أحد.

التوقيع: كالاميتي جاين، جاين المصيبة.

كانت جاين أذكى ممّا تبدو عليه وتكتب أفضل ممّا تتكلّم. ارتاح، تنفّس الصّعداء لأنّها ذهبت وتركت الطفلة في البيت. لم يصدّق أنّه في تلك اللحظة التي يقف فيها فوق سرير ماري ينظر إلى توزُّد خدَيها ولا يعرف كيف سيتصرّف حين ستستيقظ باكية بعد قليل. لم يصدّق أنّه كان سعيداً، حياته مفتوحة وذهبُه أمام ناظرَيه. لكنّ رسالة جاين الختاميّة وخروجها من حياته أحييا فيه ذكريات عام كامل من الشّغف. وربّما بسبب ذكرى حبّه لها فعل في اليوم التالي ما يفعله الأزواج. قصد مركز الشرطة في المدينة للإبلاغ عن اختفاء جاين. لم يأتِ على ذكر رسالتها كي لا يُعتبَر فرارها

منذ وقت قصير. وجد رسالة تركتها له في سرير الطفلة:

لم أكذب يوم قلت لك إنّني عاجزة عن الاستقرار وإنّني لست جديرة بالمعاشرة وكان عليك تصديقي، وها أنا أرحل عنك من دون رجعة. هكذا أكون المرأة الأولى التي تفرّ منك، أنت الذي انتهت جميع مغامراتك النسائيّة بهربك كما تقول، فلا ينجرح غرورك، أعتقد أنّني لا أظلمك كثيراً إذا تركتك مع ماري وخلّصتُكَ منّي ومن حياتي الصّعبة ومن أسراري الأقرب إلى الأوهام التعيسة. تمتّع بها وحدك، إنّه حلمك، أنت الآن ملك الهند، كما كان يقول أبي قبل أن يقفل الباب على نفسه. هناك الكثير من النساء في حياتك أسماؤهنّ جميلة، أميلي، تحكي عنها كأنّها كائن خرافيّ، قرأتُ في دفترها خلسة، المقاطع الإنكليزيّة، ثمّ أخفيتُ المفكّرة، لا أعرف لماذا، أحسستُ أنّها شقيقة روحي. فيلومينا الأميركيّة وأفعالها البطوليّة، إنّها صنف من الرجال كما أخبرتني، والآن لديك أسطورة جديدة، ماري مبارك، أعرف من دون أن تخبرني أنّك ترغب في

الأرض واكتفى الضيوف بشرب عصير الفواكه والتفوّه بعبارات الإعجاب بالملاك الصغير. رشّحوها بالإجماع لِما سيعود على والديها بالكثير من المال، أي الإعلانات التلفزيونيّة عن الحفاضات وحليب الأطفال.

في الأثناء، تحوّلت حياة زكريا وجاين إلى شجار دائم لا يُنهيه سوى مشاركة ماري التي تلتقط توتّر والديها من هواء البيت فتطلق صراخاً أقرب إلى الاستغاثة. بدأت قدرة زكريا على مداراة زوجته تتراجع، هو نفسه صار ينفعل، يتأخّر في المطعم عن قصد أحياناً أو يغادر البيت فجأة. يصفق الباب ويهيم على وجهه في الشوارع حتّى حدث ما كان دائماً يخشاه.

اتّصلت به جاين على هاتفه المحمول وهو يحضّر المائدة لأصدقاء يحتفلون بعيد ميلاد أحدهم وطلبت منه الحضور لأنّ ماري تبكي، بكاء غير معهود ولا تعرف كيف تُسكتها وكانت ستطلب الإسعاف. وصل في أقلّ من نصف ساعة، لم يعجبه هذا السيناريو، ركنَ الجنرال موتورز وترجّل. البيت هادئ، لا بكاء ولا صوت. فتح الباب ودخل، نادى على جاين فلم يلقَ إجابة، دخل إلى غرفة ماري فوجدها نائمة واللعبة الموسيقيّة، أميرات وجياد وأقزام يدورون فوق رأسها، أي أنّ جاين غادرت

خطوة أو خطوتين ويتركها تقع لتنهض. يلتقط لها الصّور بهاتفه من دون توقّف، يريد أن يحفظ جميع انفعالاتها ونظراتها وجميع ألوان فساتينها وسراويلها، أو يصوّرها عارية وهو يغطّسها في الماء ثمّ يُخرجها فتبكي وتضحك. تنام على موسيقا جيادها الدائريّة، ثمّ عندما توقظه في نوبتها الليليّة الأولى ينقلها إلى سريره فترفسه وترتمي عليه حتّى الصباح عندما ينهض بخفّة وسعادة كأنّه يحمل الدنيا على ساعدَيه، لينتظر مجيء الفتاة التي ستعتني بها خلال غيابه لتحضير المآكل.

السنة الأولى تقاسم ماري مع جاين والسنة الثانية تقاسمها مع كلاريتا.

أرشدته إليها شقيقتها التي تخدم على الطاولات في "الفيل الأبيض". عند وصولها، كتب لها لائحة بالمطلوب منها وألصقها على باب البرّاد: تشجيع ماري في الحادية عشرة على قضاء حاجتها في الحمّام، إطعامها الخضار المسلوقة ظهراً ونصب الناموسيّة فوقها عند القيلولة كي لا يتمتّع البعوض بجلدتها الناعمة. يعفيها من تحضير الطعام له وكيّ ثيابه، يحبّ كيّ الثياب بيده، لتتفرّغ لماري فقط شرط ألا تخرج بها من عتبة المنزل مهما حدث، ومهاتفته من الفور في حال حدوث أيّ طارئ. مكسيكيّة من دون أوراق، لطيفة كما لا يجتمع اللطف مع الحرمان إلّا نادراً. صار يسخى عليها

17

أربع سنوات أمضاها مع ماري كانت أجمل أيّام حياته. يرفعها إلى مستوى وجهه ليشتمّها فيعرف هل قضت حاجتها في الحفاض. يشرع في تنظيفها بالخِرَق المُبلّلة ويُعيد تحفيضها وتقبيل رجليها. تستعيد مزاجها المرح، تصفّق وتصرخ فرِحة، يحاول تنحيف صوته ليُطربها بأغاني أسمهان التي من بعدها ومن بعد أمّ كلثوم، كما تقول والدته أميلي، يجب أن يُحرَّم الغناء على النساء. يهمس في أذنها: "ليالي الأنس في فيينا نسيمُها من هوا الجنّة"، يقرأ لها قصيدة "خفّ القطين" للأخطل من كتاب **عيون الشّعر العربي**؛ يريدها أن تتآلف باكراً مع لغتها الأمّ. يُخبرها، كأنّه يحكي إلى شخص بالغ مثقّف، أسطورة عشتروت وأدونيس وزهر الرّبيع الأحمر الذي يغطّي كرم المحموديّة مع اقتراب يوم الجمعة العظيمة، وهي تمسكه من أنفه وتنزع نظّارات القراءة عن وجهه بينما يُعرّفها على المكعّبات الخشبيّة الملوّنة وعلى مجسّمات الفيل والزّرافة والحمار. يساعدها على التجشّؤ بعد زجاجة الحليب، يحملها في كيس مشدود على صدره ويقصد بها المتاجر والحدائق العامّة، يساعدها بصبر في الوقوف على قدميها والسّير وحدها

طوعيّاً ولم يُشِز إلى أنّها تركت الكثير من مقتنياتها في البيت. أُبلغ مع ذلك أنّه لن تكون هناك تحرّيات حول غيابها قبل ثلاثة أيّام لأنّها قد تعود؛ هذا ما تقوله الإحصاءات حول المبلَغ عن اختفائهم، أكثر من نصفهم يعود في غضون ثمانٍ وأربعين ساعة، أو تكون غادرت بملء إرادتها. وأنهت ضابطة الشرطة مطالعتها بدرس مختصر لهذا الأجنبيّ: "تعرف أنّنا في بلاد حرّة".

أعطته أخيراً نموذجاً خاصّاً بالأشخاص المفقودين لملئه، ولمّا وصل إلى السؤال عن "سمات خاصّة"، كتب: "جميلة جدّاً، تشبه فيفيان لي".

وسط حديقة طبيعيّة، تجمع كلّ مراحل التعليم قبل الجامعة. صار ينتظر معها الباص كلّ صباح ويكون واقفاً أمام مدخل البيت عند عودتها مع الغروب. سألته مرّة: "أين أمّي؟"، سألتها رفيقاتها لماذا ليس لديها أمّ مثلهنّ، أخبرها أنّها سافرت ووعدها أنّها سترجع في يوم من الأيام ودلّها كبرهان على ثيابها وأحذيتها التي تركتها في الخزانة. وافقت ماري ولم تطمئنّ تماماً.

توالت الأيّام سهلة مبتسمة حتى انفتح باب الجحيم.

حاول زكريا فيما بعد ومن دون جدوى أن يتذكّر ماذا كان يفعل في المطعم، مَن كان واقفاً إلى جانبه وماذا كان يحضّر لطبق اليوم عندما شاهد "الخبر الطارئ" على شاشة التلفزيون نقلاً عن متحدّثة باسم الشرطة: "إطلاق نار في مدرسة ويست لايك في ساراتوغا سبرينغز".

– ماري هناك!

لم ينزع عنه مريول المطبخ، لم يتكلّم مع أحد، استقلّ الجنرال موتورز وطار إلى المدرسة. الشّرطة كانت قد وصلت، أقفلت المدخل وطوّقت المكان، وقد سيطرت على مطلق النار لكنّ التفتيش مستمرّ عن احتمال وجود شركاء له فوجب الاحتياط.

يسكن ستانلي جاكسون الابن مع أمّه المطلّقة المدمنة على الكحول، التي أكثرت من الويسكي خلال

فيقودها إلى فحص السّمع وفحص النظر وجرعات الطعم وفحص البول؛ يخاف من نقص فيها فلا يجد. سأله الطبيب عن والدتها فأخبره أنّه يربّيها وحده فنصحه بشدّة أن يرسلها إلى الحضانة: "لا يمكنها الاكتفاء بكَ!".

تقاسمها في عامها الثالث مع "حديقة الأطفال". بكى زكريا في أوّل يوم، هي بكت وهو بكى، ثمّ طلب إذناً للبقاء معها حتّى تلتهي عنه أو تنام فينسحب في غفلة عنها ويبقى لوقت خلف الزجاج يتابعها كيف تنساه وتبدأ نسج صداقات جديدة مع أترابها الجالسين أرضاً. تأتيه بعد الظهر بكلمات إنكليزيّة تعلّمتها وبرسوم بأقلام التلوين. أخبرته المعلّمة السّاهرة على الصّغار أنّ ماري بقيت في الأيّام الأولى ترسم والدها ولا موضوعاً آخر غير والدها. يأخذها أيّام الآحاد لتشاهد الجَمل وتُطعِم الزّرافة وتمتطي الجواد في حديقة الحيوانات، ثمّ حاول التخطيط لحياته المقبلة، فقرّر أن تلتحق ماري بالمدرسة في ساراتوغا وفور انتهاء العام الدراسيّ الثاني يكون الإياب الكبير إلى تلّ صفرا.

في الخامسة من عمرها، وكانت قد بدأت تعرف نتفاً من الإنكليزيّة والعربيّة والإسبانيّة، أدخلها الصفّ الابتدائيّ في مدرسة مبانيها مسقوفة بالقرميد وموزّعة

بإكراميّات خارج مَعاشها الأسبوعيّ وهدايا من كلّ نوع لأنّ روحه بين يديها من التاسعة صباحاً حتّى غروب الشمس. عطفت كثيراً على ماري، تلاعبها طوال النهار وتلقّنها ألفاظاً إسبانيّة تُفاجِئ بها والدها عند إيابه. يصرف زكريا الفتاة فور وصوله لينفرد بماري، يأسره الإيقاع اليوميّ فيؤجّل مشروع عودته إلى لبنان. يخشى انفجار فقّاعته الحميمة في ساراتوغا سبرينغز، يقول إنّه سيعود إلى هناك ولا يفعل شيئاً ليبدأ العودة، حتّى أنّه لم يُخبر شقيقته مرتا أنّ لديه ابنة صغيرة يمضي الوقت كلّه معها. لم تنادِه المدينة، لم يرغب يوماً في البحث عن صداقات فيها أو عن مقاهٍ. عالمه اكتمل أوّلاً بجاين، جاين التي لم تعد إلى البيت ولم تُجرِ اتّصالاً واحداً، لا رسالة ولا هاتف، كأنّ إعلانها نفسها سيجعل جدار انفصالها يتصدّع فتعود. خاف منها مرّة عندما أخبرته كلاريتا أنّ امرأة قرعت الباب لكنّها لم تفتح لها كما أوصاها زكريا، ومن أوصافها، شكّ في أن تكون جاين عادت لتأخذ ماري وتهرب بها.

في فرنسا، كان لعوباً ضجوراً، حتّى ماتيلد لاغرانج لم تترك فيه جرحاً عميقاً. في هذا الجانب من المحيط، صار حنوناً أميناً أسيراً بإرادته لمَن يحبّ. عالمه اكتمل من بعد جاين بماري. ماري لعبته، يربط لها شعرها جديلة، يختار لها أحذيتها، يدفعها إلى الرقص على

بندقيّة عيار 9 ملم. ولمّا ساد الذّعر وحاول التلامذة الابتعاد عن مرمى نيرانه، راح يطلق النار من دون توقّف منتقلاً من رشّاش إلى آخر حتّى فرغت ذخيرته، فخرج من مخبئه ووقف رافعاً يديه على مقربة من الصّغار القتلى والجرحى المرميّين أرضاً، ولمّا اقترب منه رجال الشرطة وهم يصرخون بأوامرهم المتأخّرة وألقوا القبض عليه، كانت تعلو وجهه تلك الابتسامة البلهاء، مقدّمة للقول إنّه مختلّ عقليّاً وهو كان كذلك بلا شكّ. هذا والمحكمة العليا في نيويورك رأت قبل أعوام حكم الإعدام مخالفاً لدستور الولاية.

ثمانية قتلى وخمسة عشر جريحاً نُقلوا إلى أقرب مستشفى في المدينة تجمّع في بهوه كلّ الذين لم يخرج أبناؤهم من المدرسة وأملهم الوحيد أن تكون إصاباتهم غير مُميتة. كان زكريا يترنّح كالسكران، يلفظ اسم ماري، يطالب بها فلا يلقى ردّ فعل. يُطلب منه الجلوس ليأتوه بالتفاصيل وتختفي الممرّضة عن الأنظار، يتفادونه وهو لا يعلم، ثمّ خرج إلى قاعة الانتظار طبيب شابّ بملامح آسيويّة نادى على أهل ماري مبارك. كان الطبيب دامعاً، وقف زكريا على رجليه وانهار أرضاً. "فقد ابنته"، قال الطبيب وطلب من المسعفين حمله إلى أحد أسرّة الطوارئ. أُعطي مسكّنات ولمّا استعاد وعيه، قال إنه كان يُخبِر ماري

من أهل التلامذة وآخر مَن غادر المكان. تدفَق الناس من بعده بينما توقّف إطلاق النار داخل المدرسة وبدأت فرقة ضاربة من الشّرطة تتسلّق الجدار من نقاط عدّة. فجأة انفتح الباب وخرجت مجموعة من التلامذة الهلعين وسط صراخ وبكاء هستيريّ، منهم مَن وجد أهله في انتظاره ومنهم مَن أبعد عن المدرسة بحراسة البوليس. كان زكريا يُحصي الخارجين، يتفرّس فيهم واحداً واحداً؛ لم يرَ ماري بينهم، حاول الدخول مع رجل آخر وسط الفوضى فتصدّت لهما الشرطة بحجّة خطر الموت.

بدأ ستانلي جاكسون يطلق رصاصات إفراديّة على الصّغار الذين هرولوا خارج صفوفهم، سقط منهم مَن سقط وفرّ الباقون عائدين إلى المبنى استجابة لأوامر الأساتذة، لكنّ ماري مبارك كما هو مكتوب على البطاقة المعلّقة على صدرها هربت في الاتّجاه المعاكس وضفيرتاها الشقراوان تتأرجحان يمنة ويسرة. لمحتها إحدى المدرّسات، نادت عليها فلم تسمع وسط الصّخب العارم، كانت تحمل حقيبتها الصّغيرة على ظهرها وفيها قنّينة ماء وبسكويت بالشوكولا وأقلام التلوين. تركض في اتّجاه أجمة الدردار، في اتّجاه ستانلي جاكسون الابن الذي لم يتكلّف عناء التصويب عليها فأرداها عن بُعد عشرة أمتار نَشلاً، فجّر رأسها الصّغير برصاصة

أشهر حمَلها به، ويمضي القسم الأكبر من نهاره في غرفته وحيداً يستمع لموسيقا صاخبة ويشاهد أفلام عنف يتفوّق فيها أبطال أشدّاء على أشرار من أعراق وألوان غريبة يسقطون كالبعوض تحت نيرانهم وضرباتهم. يتحادث على أحد مواقع الدردشة على الإنترنت مع جماعات تعتمد الصليب المعقوف شعاراً سرّياً لها وتؤمن بأنّ العالم سينتهي قريباً مع انتهاء سيطرة العِرق الأبيض في أميركا. يختلس المال من أمّه ليشتري السلاح فاستحوذ بكلّ سهولة خلال شهرين على ثلاث بنادق أوتوماتيكيّة وعدد من صناديق الذخيرة، وأبلغ أصدقاءه الافتراضيّين أنّه سيُقدم على فعل سيكون له صدى كبير في البلاد كلّها، فشجّعوه على فعلته من دون أن يطلبوا منه مزيداً من التفاصيل. أوقف سيّارته بمحاذاة جدار مدرسته السّابقة من الجهة الخلفيّة، حمل كيس الأسلحة والذخائر وتسلّق الجدار. يعرف مدرسة "ويست لايك" جيّداً، كَمَنَ في أجمة من أشجار الدردار كان يختبئ فيها عند متابعته الصفوف الثانويّة ويدخّن سجائر الحشيش في غفلة عن الناظر. جهّز أسلحته وانتظر خروج التلامذة إلى باحات المدرسة وبدأ التصويب على الرؤوس.

حاول زكريا الدّخول، صرخ، ابتهل، بكى وهو يردّد: "ماري، ماري" في هذيان لا ينقطع. كان أوّل الواصلين

تأتِ جاين مولوي. علمت بمقتل ابنتها، اكتفت برسالة إلى زكريا تقول فيها إنّها لن تحضر جنازة ماري فهي عاجزة عن ذلك، وإنّها في كلّ الأحوال لن تصمد طويلاً في هذه الحياة. "سيرسلونني إلى مصحّ الأمراض العقليّة لكنّني لن أدعهم يفعلون، لديّ أساليب عدة للإفلات من بين أيديهم".

تريد منه فقط أن يرشدها إلى مدفن ماري، ولديها أمنية أخيرة أن تزور والدها مرّة جديدة في بوسطن لتجلس معه بصمت، تتأمّل وجهه وتنصرف بعدها إلى غير رجعة.

أجابها زكريا بأنّه ذاهب إلى بلاده. طلب منها أن تأتي إلى البيت وتفعل به ما تشاء لأنّه لن يدخله بعد اليوم.

لم يودّع أحداً سوى جاره الهنديّ، طلب منه أن يذهب إلى البيت ويأتي له بألعاب طفولة ماري، تعانقا طويلاً وأعطاه الهنديّ "منطرا" بأيديها الثماني مذهّبة تحميه قبل أن يقصد مصرف ساراتوغا الوطنيّ ويحمل معه "عازف الكمان الأزرق" ويوميّات أميلي وقارورة رماد ماريا. طار إلى باريس حيث أمضى فترة من الزمن قبل أن يعود نهائيّاً إلى تلّ صفرا.

لم يبقَ من أثر لمرور زكريا مبارك في ساراتوغا سبرينغز سوى تقرير مقتضب أُودع في أمانة مكتب "المساعدة الاجتماعيّة" التابع للبلديّة، ربّما لم ولن

إلى لبنان برفقة ابنته وبات الآن لا يعرف ماذا سيفعل. كانت المرّة الوحيدة التي تكلّم فيها الهنديّ: "نحن الهندوس نحرق موتانا فتأخذ النّار أرواحهم لتتّحد مع الكائنات السماويّة ويبقى لنا رمادهم ذكرى. تضع رماد ابنتكَ في قارورة وتحملها معك إلى حيث تريد، إلى بلدك، أنا جئت بأمّي معي من دلهي الجديدة ولا تزال هنا فوق الرّفوف بين كتبي".

وهكذا فعل زكريا، ترك البيت صباح اليوم التالي بعد أن شكر جاره طويلاً على مواساته، وأمضى بقيّة أيّامه في ساراتوغا سبرينغز في فندق صغير، يشرب الويسكي حتّى ينام، يدور أحياناً في السيّارة حول البيت ويبتعد مجدّداً، يكرّر محاولاته لرؤية ماري. رأى في إحدى دوراته كلاريتا الفتاة المكسيكيّة تجلس على عتبة الباب تغطّي وجهها وهي تجهش بالبكاء، ترجّل وناداها من بعيد لا يجرؤ على الاقتراب، عانقها وطلب منها أن تصلّي لماري بلغتها الإسبانيّة، أن تصلّي للسيّدة العذراء التي سُمّيت على اسمها.

رافقه جاره الهنديّ إلى الجنازة المهيبة المشتركة لضحايا المدرسة وحضرها حاكم الولاية وأعضاء مجلس الشيوخ. ارتجفت يده وهو يطلق مع سائر أهل

حكاية عن بلدته البعيدة هناك في الشرق، عن ابنة الأمير التي خطفها حبيبها على بساط الرّيح، وإنّه يريد أن يرى ماري ليُكمل لها الحكاية فقط. غطّت الممرّضة وجهها من فرط التأثّر وخرجت مُسرعة من الغرفة. طلبوا اسمه وعنوانه ورقم هاتفه، بدؤوا يتشاورون ويتهامسون ويعودون بالقرار نفسه: لن يُسمح له برؤيتها. أوضح له "المساعد النفسانيّ" أنّه من الأفضل له الاحتفاظ بصورتها على مُعاينة ما حلّ بها. صفنَ، اقتنع، وافق وضرب رأسه بالجدار ضربة ارتجّت لها غرفة الانتظار في مستشفى القدّيس توما، ثمّ نهض واتّجه نحو باب الخروج وبدأ يمزّق قبّعته الصيفية بيديه وأسنانه. قرأ أحد الجيران أسماء الضحايا فتطوّع لانتظاره أمام باب البيت عندما عاد، رجل أسمر بدين من أصل هنديّ احتضنه ودخل معه ليجلسا في غرفة المعيشة صامتين. يقف زكريا بين حين وآخر على رجليه، يذهب في اتّجاه باب المدخل، يفتحه ويخرج إلى الشارع يتأمّل البيت ثمّ يرجع، يغلق الباب ويتّجه نحو غرفة ماري، يقف أمام بابها، يعجز عن فتحه ويعود إلى الجلوس مع جاره، حتّى أدرك زكريا أنّه عاجز عن البقاء وحده في البيت فطلب من الهنديّ السّهر معه على الشرفة ففعلا. أخبره بعد صمت طويل وجرعة أخرى من الأقراص المسكّنة أنّه كان على وشك العودة

أنّها لأشخاص من المذهب الدرزيّ وضعوا الجريمة في سياق تاريخ من الأفعال وردود الأفعال. ذكّروا أنّ جرائم سابقة ارتُكبت من دون أن تلقى العقاب، وفي ذلك إشارة إلى وفاة ناصيف حمدان بعد إصابته بطلق ناريّ وبَتر ساقه قبل عقود من الزمن. كما عاد بعضهم بالتّهمة إلى تعاون "الآخرين" مع العدوّ إبّان الاجتياح الإسرائيليّ للبنان، ومنهم مَن توغّلَ في الماضي وصولاً إلى مجازر 1860. وصلت الأصداء إلى تلّ صفرا وحرّكت من جديد أشباح ماضٍ مرير يفتخر الكثير من أهاليها أنّهم نجحوا في الخلاص منه.

أمام هذه الحرب الأهليّة على موقع "تويتر"، أصدرت وزارة العدل بياناً تؤكّد فيه ترفُّع ونزاهة القضاء وتحذّر من التشكيك في الجسم القضائيّ، خصوصاً أنّ سهام التجنّي طالت أيضاً كمال أبو خالد الذي ورد ذكره مواربة في إحدى صفحات "فايسبوك" وأنّه لا يجوز تعيين محقّق من طائفة المتّهمين بالجريمة، في إشارة متسرّعة إلى أنّ قاضي التحقيق المساعد في جبل لبنان ينتمي إلى الموحّدين الدروز. والواقع أنّ كمال أبو خالد المولود في منطقة رأس بيروت المختلطة مسجّل في دفتر النفوس على أنّه من السريان الكاثوليك، وهي جماعة دينيّة ضئيلة العدد لها

18

ما كان لمقتل زكريا مبارك أن يحظى باهتمام يُذكر في الإعلام اللبنانيّ لو بقي دافع الجريمة كما في يومها الأوّل نزاعاً عائليّاً على الميراث. لم تخصّص له جرائد العاصمة فور حدوثه أكثر من مربّع صغير في صفحة المتفرّقات ينتهي بالعبارة المعتادة: "والتحرّيات جارية لكشف ملابسات الجريمة". تلاشى بسرعة ذكرُ الحادثة من الصّحافة الورقيّة لتبدأ بالظّهور تغريدات على موقع "تويتر" صادرة عن حسابات يوقّع أصحابها بأسماء مستعارة مثل "قدّيس الجبل" و"بحبّك يا وطني" أو بأحرف الأسماء الأولى وتعبّر جميعها عن شكوى الكَيل بمكيالين: "لو كان القاتل محلّ القتيل، والقتيل محلّ القاتل في جريمة تلّ صفرا، لانكشفت خيوطها بسرعة البرق"، أو باقتضاب أكثر: "نُقتل ولا حتّى مَن يحقّق في مقتلنا"، وكان واضحاً أنّ نائب الفاعل المجهول هنا ليس سوى المسيحيّين، كما كان يُضاف إلى هذه الاتّهامات هاشتاغ: "العدالة لزكريا مبارك". وتبيّن أنّ المحامي الحزبيّ الذي انتزع لعائلة مبارك حقّ المرور إلى كرم المحموديّة هو الذي يقف وراء هذه الحملة التي استدعت ردوداً من حسابات مغفّلة أيضاً يُفترض

يقرؤه أحد، مُوقَّع من المُساعد النفسانيّ آدم ج. موريتز وله بحثٌ جامعيّ حول السلوك النمطيّ لضحايا العنف وأقاربهم. كان قد عاد وقابل زكريا أكثر من مرّة في غرفة الفندق، يقول فيه إنّ "السيّد مبارك في حالة إحباط متقدّم بفعل تعلّقه الشديد بابنته التي كان لها أباً وأمّاً، وكانت له الحياة بأكملها"، وإنّ المساعد لا يعوّل كثيراً على احتمال ترميمه نفسه، لا، بل يخشى شخصيّاً من إقدامه على "فعل لا تُحمد عقباه".

– هل بعتَه مسدّساً في يوم من الأيام؟

– نعم.

– أيّ موديل؟

– غلوك 17 أيضاً.

شعر كمال أبو خالد أنّه فعلاً وسط حلم مزعج.

– متى فعلت ذلك؟

– منذ ستة أشهر، عند استلامي مجموعة المسدّسات الجديدة.

كاد قاضي التحقيق يندم على أفول زمن التعذيب لاستخراج الاعترافات من المتّهمين.

صرفَ مخلوف وهو لا يعرف لماذا لا يقاضيه بتهمة تجارة السلاح غير الشرعيّ التي يعترف بممارستها في مكتب قاضي التحقيق. استدعى اثنين من مساعديه لرحلة أخيرة إلى تلّ صفرا قبل الانتهاء من هذا كلّه، وهو بات موقناً رغم بعض الإشارات المتعارضة أنّ الخاتمة وشيكة. عاد إليه بعض شعور الاعتداد والارتياح فتبادل مع مرافقيه في الطريق النوادر حول حكاية الذهب المدفون في أرض البيت الذي يقصدونه. روى أحد المساعدَين نسخة مماثلة في سيرة تاجر مواشٍ كبير عاد من البرازيل ليدفن ثروته تحت بيته في إحدى بلدات الكورة في شمال لبنان. البيت لا يزال حتّى اليوم مملوكاً لورَثة الرجل مجتمعين، لا أحد

البصمات عن هذا المسدّس الذي انتقل من يد إلى يد بين تجّار السلاح بعد استخدامه في جريمة تلّ صفرا، وأضاف ساخراً أنّه ربّما يجد عليه آثار القتيل وآثار المتّهم بقتله.

في جولة أخيرة على ملفّ القضيّة، اكتشف المحقّق أنّ اسم جبران يونس مبارك عاد للظهور في تقرير وصل بعد الجريمة مكتوب بخطّ اليد يفيد أنّ الرجل نفسه الذي حامت حوله الشُبهات فور مقتل زكريا لديه سجلّ عدليّ حافل: أحكام بتأليف عصابة للسَرقة في الحوض الخامس من مرفأ بيروت، والاشتراك في القتل وفي الاعتداء على رجال الأمن أثناء ممارسة مهمّاتهم، طالها جميعها العفو العامّ الذي أقرّه مجلس النوّاب بعد نقاشات حامية في نهاية الحرب الأهليّة.

لمعت فكرة في رأس كمال أبو خالد. التفاصيل تُعيده إلى بديع مخلوف. استدعاه مجدّداً إلى مكتبه على وجه السرعة: "أنت متورّط في هذه القضيّة!".

دافع ببراءته واستعاد قصّة حياته، فقاطعه المحقق: "هل تعرف المدعوّ جبران يونس مبارك؟".

لم يتأخّر في الجواب: "نعم، أعرفه من أيّام الحرب، كان صغيراً ومندفعاً إلى القتال".

– هل تعرف أنّه ابن عم زكريا مبارك؟

– كلا.

فلسطينيّة مسلمة قدمت عائلتها إلى لبنان مع نكبة 1948.

بادر كمال أبو خالد إلى الاجتماع بمدّعي عام جبل لبنان الذي أشاد بمزاياه وطالبه الانتهاء من هذه القضية التي قد يستغلّها السياسيّون لتصفية حساباتهم الطائفيّة، فأبلغه أبو خالد أنّه بات قاب قوسين من ختم التحقيق وصياغة القرار الظنّي، وأنّ الدلائل تشير إلى أنّهم على الأرجح أمام عمليّة انتحار ولم يبقَ سوى التقرير البالستيّ لتأكيد الوقائع المتطابقة. اتّصل مدّعي عامّ جبل لبنان بالمدّعي العامّ الاستئنافيّ الذي طمأن بدوره وزير العدل حول الخاتمة المتوقّعة لوفاة زكريا مبارك.

وكان العقيد موسى، مسؤول المختبر الجنائيّ المركزيّ الحديث العهد الذي دُشّن بحضور رئيس مجلس الوزراء، قد وعدَ قاضي التحقيق باستخلاص النتيجة خلال ثلاثة أيّام من استلامه الغلوك 17، لأنّ هناك معدّات لم تصلهم بعد وهم مضطرّون إلى التعاون مع مختبر إحدى الجامعات الخاصّة تحقيقاً للنتائج المرجوّة. وقد صرخ العقيد موسى بعنصر الأمن الذي دخل عليه حاملاً المسدّس بيده العارية مُرسَلاً من قاضي التحقيق بأنّه يعبث بسلاح الجريمة واتّصل للتوّ بكمال أبو خالد. أخبره الأخير أنّه من المستحيل رفع

خرج كمال أبو خالد متجهّماً: "كيف دخلتِ إلى غرفة زكريا؟".

- لم أدخل.

- معكِ من الأساس نسخة عن المفتاح، لا تكذبي.

انفجرت باكية: "إنّه أخي وأنفّذ رغباته!".

- أين القارورة المكتوب عليها اسم ماري؟

غصّت بدمعها ولم تجب.

عاد كمال أبو خالد إلى أسلوب المفاجأة: "انتحر زكريا، أطلق على نفسه الرّصاص".

انتفضت كأنّها لُسعت: "كان ينوي زراعة العنب وإنتاج النبيذ الأبيض في كرمنا، وكنت أبحث له عن زوجة وقد وُفّقتُ بواحدة اقترحتُها عليه فلم يمانع".

ودّعَها متمنّياً ألّا يراها في المستقبل، وذهب إلى وكيل الوَقف لتأكيد حدسه مرّة جديدة. أخبره الأخير كيف رمّم زكريا المدفن العائليّ، وأنّ شقيقته مرتا جاءته تقول إنّها لا تريد أن يُدفن أبناء عمّها معهم لأنّه لا يجوز دفن القاتل والقتيل جنباً إلى جنب، ثمّ أعطته زجاجة قالت إنّ فيها رماد ابنة زكريا وتُدعى ماري، وطلبت منه دفنها معه، ففتح باب المدفن ووضعها إلى جانب تابوته. حاول كمال أبو خالد مشاكسته: "أين أنتم من قيامة الأجساد؟".

- كثر يدفنون أشياء عزيزة مع أقاربهم...

عليهم مرتا فسألها القاضي: "ماذا يحدث؟". حاولت التجاهل.

– تعرفين كلّ شيء من البداية.

– أخبركَ ولا تصدّقني.

– أين عثرتِ على هذه اللوحة وهل تعرفين ثمنها؟

– جاء في الأمس شابّ لا أعرفه قال إنّ لدى أخي لوحة ثمينة يودّ شراءها.

إذا كان هناك من خصوصيّة لمرتا مبارك، حارسة البيت الأخيرة، فهي أنّها نادراً ما تردّ على السؤال الموجّه إليها بل تخرج بجواب متعب غير متوقّع.

– ولماذا تتركين عمّتك تمزّقها؟

خبّأ زكريا اللوحة في غرفة عمّته وأنا أعطيتُها إيّاها تتسلّى بها عنّي...

– كيف علمتِ أنّها مزوّرة؟

لم تجب، لكنّها أردفت بعد قليل: "وجدتُ هذه الصّورة كئيبة ونحن تكفينا كآبتنا، فقلت لعمّتي قطّعيها لننتهي من حظّنا السيّئ".

ابتسم المحقّق ساخراً وأخرج مفتاح غرفة زكريا من جيبه ليدخل إليها وحده مرّة جديدة. غاب عشر دقائق قدّمت خلالها مرتا القهوة إلى مساعدَيه وحاولت تهدئة راحيل التي كانت تطالب بإلحاح بـ"الكمنجاتيّ الأزرق".

يصدّق وجود الذهب ولا أحد يجرؤ على التخلّي عن حصّته في العقار، ومن بين أحفاد تاجر المواشي مَن استقرّ في ستوكهولم أو حتّى في غينيا الاستوائيّة ولا يزال يملك خمسين سهماً في "عمارة" جدّه كما يسمّونها تفخيماً. ولطالما حامَ القرويّون حول الثروات التي لا يأكلها الزّمن خصوصاً في أزمنة التردّي الاقتصاديّ، وكم حفرَ أهل تلّ صفرا أنفسهم حول الكنوز وقرؤوا في كتب السحر سعياً وراء جواهر وعقود تعود إلى ملوك خرافيّين. ولو وسّع القاضي دائرة مقابلاته، لاكتشف ما كان يُقال عن آل مبارك وأنّ لديهم كتاباً إذا قرؤوا فيه تحضر الأرواح وتُسمع في أرجاء بيتهم ليلاً أصوات غريبة، وسيتجرّأ أحدهم ويخبره أنّ عمّتهم راحيل انعقد لسانها وزقّ عقلها يوم طاردها الجنّ في قبو البيت.

رأوا راحيل الثمانينيّة نفسها فور دخولهم، جالسة في مقعدها، تُمسك مقصّ خياطة كبير وتمزّق بيد مرتجفة قطعة كتّان كبيرة تعلوها الرسوم الملوّنة. فسارع كمال أبو خالد إلى انتزاع المقصّ من يدها إذ أدرك ما يحدث. وبالفعل اقترب من اللوحة فوجد فيها الموسيقار الريفيّ والكمان وبقعة اللون الأزرق، وكانت راحيل نجحت في اقتطاع العصفور الأوّل الواقف على كتف الرجل وبدأت قصّ قرص الشمس البيضاء إلى يسار الصّورة. دخلت

هذا الغلوك 17 جديد لم يُستخدم في إطلاق عيار ناريّ واحد لأنّ أسطونه لا يزال نظيفاً غير مجرَّح".

ارتمى كمال أبو خالد الذي بقي واقفاً لتلقّي خلاصات العقيد بكلّ ثقله على الكرسيّ وراح يضرب بالقلم على سطح المكتب. هذه القضيّة مسكونة وستهزمه. طلب من العقيد موسى الجلوس بدوره. خيّم عليهما صمت طويل قطعه في النهاية العقيد: "طلبتُ إعادة التدقيق مراراً بعد هذه النتيجة المفاجئة فجاءت الخلاصات دائماً متشابهة".

انهار القرار الظنّي وتحوّل إلى لعبة إنشائيّة. لن يعرف أبو خالد كيف يواجه المدّعي العامّ ولم يعد لديه طاقة حيويّة لاستئناف التحقيق الذي تبدو عناصره قابلة للتناسل إلى ما لا نهاية. أمّا طلبُ تنحيه عن القضيّة، فسيكون أسوأ الحلول. لكنّه شابّ ومتفائل ومُدّعٍ. رفع رأسه ونظر إلى العقيد موسى متذكّراً ما قيل على مسمعه من أنّه إذا فكّر مليّاً في أمر يطلبه من شخص ونظر إليه في عينيه بإصرار، فإنه سيتلقّى الرسالة.

لعب دور الواثق من نفسه: "مستحيل! كلّها جاءت من مسرح الجريمة".

لم يعد يتوقّف عند كذبة كهذه.

وحروب الأشقّاء مع حُبّ النساء الفرنسيّات ووعد الثروة الزائف، إلى عداوة تختفي وتستيقظ منذ قرن ونصف وصولاً إلى مأساة انتقلت من ساراتوغا سبرينغز إلى تلّ صفرا. ويروي بعد ذلك بالتفصيل حكاية التحقيق. يعرّج على الشخصيّات الغريبة التي صنعت هذه القضيّة وغالبيّتهم من النساء، وكذلك الاعترافات والمصادفات التي أوصلت القاضي إلى نتيجة مفادُها أنّ زكريا مبارك عاد ليرمّم مدفن عائلته ويموت بين أهله كما أخبر وكيل الوَقف في البلدة. قال عدتُ لأموت هنا واستخدم لفعلته مسدّساً من طراز غلوك.... إلخ.

كان يكتب المقدّمة بعناية، يحاول خلق منطق وتسلسل للوقائع على الورق يعوّض فيه عن تدافع العناصر وتشابك الفصول في واقع التحقيق حين تلقّى اتصالاً من العقيد موسى الذي أبلغه أنّه سيحضر إليه شخصيّاً. فتحَ العقيد حقيبته واستلّ منها التقرير بحركة مسرحيّة، وضعه جانباً على مكتب المحقّق من دون أن يفتحه، ثمّ أخرج المسدّس والرّصاصة والرّصاصة الفارغة ووزّعها أمامه قبل أن ينطق باستنتاجاته: "هذه الرّصاصة لا تتطابق مع هذه الخرطوشة الفارغة، والتأكُّد من ذلك سهلٌ فلكلّ منهما قياس مختلف، والاثنتان لا تتطابقان مع المسدّس فالعناصر الثلاثة من مصادر مختلفة، وفي كلّ حال إنّ

أكمل قاضي التحقيق دورته في تلّ صفرا بالنزول مع مساعدَيه إلى موقع الجريمة بمرافقة سائق الجيب في مخفر البلدة. كانت السماء صافية والرؤية ممتازة، ففكّر أنّه فعلاً مكان جميل للموت كما قالت الفتاة في نادي الدروب القديمة. سأل المحقّق رجل الأمن هل عاد إلى هنا أحد من المخفر فأجاب بالنفي، كرر عليه السؤال فكرّر النفي.

جالوا في المكان وكمال أبو خالد يحدّق في كلّ بقعة، قلّده في ذلك معاوناه فعثر أحدهما على دفتر أسود خلف جذع شجرة تفّاح الجبل، فأعطاه للمحقّق الذي فتح صفحته الأولى ليقرأ: "يوميّات أميلي تابت مبارك"، قلّب صفحاته قليلاً ثمّ وضعه في جيبه. لن يقرأ فيه الآن، يخشى المزيد من الإشارات.

نزل كمال أبو خالد من تلّ صفرا إلى بيروت وهو يخطّط لصياغة القرار الظنّي. يريده أدبيّاً كما كان يسمح به لأنفسهم قضاة محنّكون مشهود لهم بامتلاك اللغة العربيّة. يستوحي مقدّمته من استعارة الفالق، خطّ الزلازل الذي يُقال أنّ تلّ صفرا جالسة فوقه وأنّ المعبد الرومانيّ فيها لم يندثر بفعل مرور الزمن بل دمّرته هزّة أرضيّة ربّما تكون هي نفسها التي خرّبت مدينة بيروت. وسيُكمل قائلاً إنّ زكريا مبارك وُجد مقتولاً عند تقاطع خطِر اختلطت فيه خرافات الذهب

حول الكتاب

نبذة

في ظروف غامضة، يُعثر على زكريا مبارك مقتولاً عند حدود قريته، تل صفرا، بعد أيام على عودته من غربة طويلة بين أوروبا وأميركا وأفريقيا. لقد اختار العودة محتفظاً بلوحة «عازف الكمان الأزرق» لمارك شاغال، التي أهدتها له صديقته الباريسية.

تدور الشبهات حول أبناء العمومة الذين ربّما قتلوه طمعاً في كنز توارثت العائلة أنَّ الجدّة قد أخفته تحت المنزل الذي شيّدته لدى عودتها من أميركا.

بأسلوب مشوّق تحكي الرواية قصّة مقتل زكريا عند تقاطع خطر اختلطت فيه خرافات الذهب وحروب الأشقاء مع حبّ النساء الفرنسيات ووعد الثروة الزائف وعداوات طائفية تظهر وتختفي منذ قرن ونصف.

قيل في الكتاب

* «من الروائيين الكبار» Guardian

لم يتأخّر العقيد موسى في إنجاز المهمَة، فأرسل الساعة العاشرة صباح اليوم التالي مع درّاج من عناصر الأمن تقريراً ضمن مغلّف مختوم كتب عليه عبارة "خاصّ جداً" وطلب منه تسليمه باليد لقاضي التحقيق المساعد في جبل لبنان.

قرأ كمال أبو خالد خلاصة التحقيق المنقّحة ومفادُها أنّ الرّصاصة التي وُجدت في جوار القتيل بعد أن اخترقت جسده أُطلقت بالفعل من مسدّس الغلوك 17، وبدأ صياغة القرار الظنّي على أن يرفعه في الغد إلى المدّعي العامّ مع التوصية بوَقف التعقّبات وحفظ الملفَ.

في الأسبوع التالي، اشترى ساعة يد يوازي ثمنها ثمن مسدّس الغلوك 17 في السّوق السوداء في بيروت وأرسلها هديّة إلى العقيد موسى وهو يقول في نفسه معتذراً: "ستكون هذه الميتة الأقلّ ضرراً والأخفّ لبكةً".

بدا العقيد موسى متفهّماً خصوصاً أنّه لم يكن واثقاً من أدوات الفحص ومن مشغّليها. كان المختبر في بدايته وارتُكبت حتّى الآن بعض الأخطاء.

سأله قاضي التحقيق بابتسامة صريحة: "هل يمكنك أن تُعيد التدقيق مرّة أخيرة من أجلي؟".

– طبعاً.

قالها بتعاطُف وغادر المكتب، فأخرج كمال أبو خالد دفتر أميلي وبدأ يقرأ معاناة هذه المرأة مع أشياء الحياة وصولاً إلى الصَفحة الأخيرة المكتوبة بخطّ جديد وحبر مختلف، انتبه بسرعة أنّها مُضافة بيد زكريا مبارك: "أنا الذي لم أكن أرغب في ولد انصعث إلى التجربة، واليوم أنا في جهنّم أحاول الخروج وسلسلة حديد ثقيلة تشدّني من عنقي نزولاً، لكنّني أريد أن أعيش من أجل ابنتي ماري، من أجل أن تبقى في ذاكرة أحد، إذا انطفأتُ، ينطفئ ذكراها، وقد أجد هنا في بلادي أسباباً للاستمرار من أجلها...".

ستدور الدّنيا من جديد بقاضي التحقيق في حقل الألغاز هذا قبل أن يغلق دفتر اليوميّات ويرميه في جارور المكتب. أخرج البولدوغ الفرنسيّ بعد الظهر إلى نزهة على الكورنيش البحريّ تشدّ أزره في انتظار الفرَج في اليوم التالي. انتقل توتّر كمال إلى الكلب الذي راح يشدّ على الرّسَن ويتحرّش بالمارّة على غير عادة.

عن المؤلف

جبور الدويهي كاتب وروائي لبناني.

- **الموت بين الأهل نعاس**، مجموعة قصص قصيرة، دار المطبوعات الشرقية 1990.
- **اعتدال الخريف**، رواية، دار النهار 1995. حازت "جائزة أفضل عمل مترجم" من جامعة أركنساس في الولايات المتحدة. ترجمت إلى الفرنسية والإنكليزية.
- **ريّا النهر**، رواية، دار النهار 1998، الطبعة الثانية، دار الساقي 2015.
- **روح الغابة**، قصة للصغار بالفرنسية، دار حاتم 2001. حازت "جائزة سان اكزوبيري" الفرنسية لأدب الشباب.
- **عين ورده**، رواية، دار النهار 2002، الطبعة الثانية، دار الساقي 2018. ترجمت إلى الفرنسية.
- **مطر حزيران**، رواية، دار النهار 2006، الطبعة الرابعة، دار الساقي 2012، اختيرت ضمن اللائحة القصيرة لـ"جائزة بوكر العربية" في عامها الأول. ترجمت إلى الفرنسية والإيطالية والألمانية والإنكليزية والإسبانية والمقدونية.
- **شريد المنازل**، رواية، دار النهار 2010، الطبعة الثالثة، دار الساقي 2012، اختيرت ضمن اللائحة

القصيرة لـ"جائزة بوكر العربية" 2011، حازت "جائزة حنا واكيم للرواية اللبنانية" 2011 و"جائزة الأدب العربي" في باريس ("مؤسسة لاغاردير" و"مؤسسة العالم العربي" عام 2013). ترجمت إلى الإيطالية والفرنسية.

- **حيّ الأميركان**، رواية، دار الساقي 2014، اختيرت ضمن اللائحة الطويلة لـ"جائزة بوكر العربية" 2015. حازت "جائزة سعيد عقل" 2015. ترجمت إلى الفرنسية والإنكليزية.

- **طبع في بيروت**، رواية، دار الساقي 2016، ترجمت إلى الفرنسية والإنكليزية والإيطالية.